الابتــــلاء
وأثره في حياة المسلمين

د. جابر قميحة

مقـــدمـــــة

الحمد لله رب العالمين، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. وبه نستدفع المحن، ومنه نستجلب المنن.

ونصلى ونسلم على رسول الله وآله أجمعين عدد ما أحاط به علم الله، وخط به قلمه وأحصاه كتابه.

أمــا بعــــــد:

فيسعدنى أن أقدم للقارىء هذا البحث (الابتلاء وأثره فى حياة المسلمين).

والموضوع - كما هو ظاهر من عنوانه - موضوع واسع المدى والأرجاء. وما زال يحتاج إلى بحوث متعددة على نحو أوفى؛ فموضوع كل فصل من فصول البحث الذى أقدمه يصلح أن يتناوله الباحث ليكتب فيه بحثاً كاملاً مستقلاً.

* * *

وتبدو أهمية موضوع هذا البحث فى العوامل والمظاهر الآتية:

١ - إن الابتلاء فى السراء والضراء سنة إلهية للخلق بعامة ولأصحاب الدعوات والقيم بخاصة، وهى حقيقة إن أنكرها الكافرون والجاحدون يؤمن بها من آمن بالله ورسله، وأصحاب التفكير السوى السديد.

٢ - إن الابتلاء يرتبط بعديد من القيم الدينية والخلقية والإنسانية كالصبر والثبات والتفاؤل والاعتماد على الله والثقة بالله ثم بالنفس والقدرة على التصرف.

٣ - إن الابتلاء بمفهومه التاريخي الفعلي يستغرق عهود الرسل والأنبياء، ويشكل ساحة زمنية واسعة في تاريخنا نحن المسلمين مما يجعل الوعى التاريخى البعيد لهذه الفترات، واعتصار العبر والدروس والفوائد منها ضرورة مهمة جداً فى بناء الفرد والمجعتمع.

٤ - إن الأمة الإسلامية تعيش حالياً - على مستوى العالم - عصر الغربة والكربة: فالأقليات الإسلامية مضطهدة في كل مكان يقع عليها السجن والتشريد والقتل والذبح والحرق والنهب فى الفلبين والبوسنة والهرسك وكوسوفو وكشمير وغيرها... وشعوب الأمة الإسلامية إن دافعت عن حقوقها اعتُبرت متعصبة مندفعة عدوانية إرهابية متخلفة. أما السلوك الحضاري فلا وجود له فى شعوب المنطقة العربية إلا عند إسرائيل حتى لو سرقت الأرض ونسفت الدور على أهلها

وأقامت المذابح ونقضت كل القرارات والاتفاقات.

إنها سلسلة من المحن لا تنتهى ومن ثم كان من اللازم أن تعي هذه الشعوب فقه المحن والابتلاءات لا وعي تعرّف وتعلم فحسب، ولكن وعي سلوك وعمل كذلك، بحيث تكون المرجعية الإسلامية في عهد النبوة الطاهرة والخلافة الراشدة والأئمة من السلف الصالح هي المنبع والأساس.

٥ - والصور الشامخة الوطنية للصابرين المحتسبين في تاريخنا ممن واجهوا المحن كجماعة المسلمين في العهد المكى أيام النبى ﷺ، وقدرة النبي ﷺ على مواجهة المشركين والمنافقين واليهود، وعبقرية عمر بن الخطاب وصبر الأمة الإسلامية فى مواجهة نكبتين عاتيتين فى عام الرمادة وطاعون عمواس، وصبر أحمد بن حنبل وشموخه في محنة خلق القرآن.

هذه الصور الرائعة والشرائح الوضيئة المشرقة من تاريخنا يمكن أن تؤدى في وقتنا الحاضر مهمتين: الأولى جبر الفراغ والنقص المعنوي الفادح فى الساحة العلمية والمناهج الدراسية. والثانية: مواجهة العلمانيين وأصحاب المذاهب الهدامة الذين ينكرون عظمة تاريخنا ويدّعون خلو تاريخنا من النماذج الراقية الوضيئة.

* * *

وكل ما ذكرت يبرز أهمية هذا الموضوع والبحث فيه ويمثل باعثاً قوياً ودافعًا صادقاً للكتابة فيه.

* * *

وقد جاء البحث فى توطئة وأربعة فصول وخاتمة.

والتوطئة: مفهوم الابتلاء فى اللغة والسياق القرآنى:

١ - عرف البحث فيها «الابتلاء» فى أصل اللغة وقدم شواهد هذا التعريف.

٢ - قدم وجوه الاتفاق والالتقاء، ووجوه الاختلاف والافتراق بين «**الابتلاء**» أو «**البلاء**».

وألفاظ أو مصطلحات أخرى مثل: الفتنة والاختبار والتكليف.

٣ - وقدم مفهوم «**الابتلاء**» في «**السياق القرآنى**» بمعانيه المختلفة، وكذلك مفهوم «**الفتنة**» فى مجالى السراء والضراء أو الحسنات والسيئات، وما يتبع ذلك من حكمة الشارع في هذا الابتلاء.

٤ - قدم ما بين الابتلاء والفتنة - بصفة خاصة - من فروق في اللغة بعامة، وفي السياق

القرآني بصفة خاصة.

* * *

وجاء الفصل الأول «من هدي القرآن الكريم في الابتلاء» يقدم لنا بعض ما يعكسه الابتلاء ويرتبط به من حقائق وقضايا ومواقف وقيم، ومنها:

١ – خلق الكون والإنسان والحكمة من ذلك.

٢ – طبيعة الإنسان الجاحد في فهمه للابتلاء وطريقة تعامله معه.

٣ – الابتلاء وعلاقته بخليقتي الصبر والشكر.

٤ – الابتلاء والتمايز والتباين بين الناس في الصفات النفسية والعقلية والجسدية والمراكز الاجتماعية.

٥ – الابتلاء في الآخرة وكيف يكون .

٦ – ابتلاء المسلمين في العهد المدني، وكيف أصبح هذا الابتلاء «قاعدة حيوية»، فتوالت الآيات تهييء المسلمين وتعدّهم لمواجهة الابتلاء والتعامل معه سواء أكان بالسراء أو الضراء في مجال الغنى والاكتفاء والانتصار، ومجال الفقر والاحتياج والانكسار. وقد كان في حياتهم انتصارات بدر وخيبر وتبوك وانكسار أحد ومؤامرات المنافقين واليهود.

٧ – استدعاء شرائح من تاريخ بني إسرائيل قديما بما فيها من نعم وسراء، وما فيها من نقم وضراء. ومجابهة يهود المدينة بها حتى يتخلوا عن ضلالهم وفسادهم طمعاً في عفو الله حتى لا ينزل بهم ما نزل بأجدادهم من نقم وعذاب.

ولكن يهود المدينة ظلوا على ضلالهم وفسادهم وعنادهم حتى لاقوا ما يستحقون على يد رسول الله ﷺ، إلى أن تطهرت منهم الجزيرة العربية تماماً أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

* * *

وقد كانت الآيات القرآنية هي المرتكز والمنطلق في إبراز ما قدمنا من قيم ومواقف وحقائق تاريخية، وما وراءها من حكم ودروس وفوائد.

* * *

ثم كان الفصل الثاني بعنوان «من هدي السنة في الابتلاء» مبينا بعض خطوط المنهج النبوي في عرض صور الابتلاء وحالاته وتوجيهاته، وهي تمثل بعض خطوط المنهج النبوي في الدعوة إلى الله:

- فوظف الأسلوب القصصي في عرض صورتي الابتلاء بالضراء «بقصة الغلام المؤمن والملك الكافر» والابتلاء بالسراء في «حديث الأبرص والأعمى والأقرع».

- وعرض الابتلاء إجابة على سؤال أو أسئلة كان المسلمون يهرعون إليه ويفزعون بها.

- ووظف أسلوب المفارقة أو الجمع بين الصورتين المتناقضتين حتى يتضح التباين والملامح الفارقة بينهما، فبضدها تتميز الأشياء، كجمعه ﷺ بين صورتي المؤمن والمنافق في تلقي المحن والابتلاءات والتعامل معها.

* * *

والفصل الثالث «من صور الابتلاء في الأمم الغابرة كما عرضها القرآن الكريم».

وهذه الصور كثيرة متعددة فى القرآن؛ لذا اكتفينا بانتقاء بعضها، وكان الانتقاء على أساس تمثيل «الشخصية» أو «الواقعة التاريخية» نوعيات مختلفة من الابتلاء:

ففي الابتلاء بالسراء:

أ - قدم البحث صورة للابتلاء بالغنى الذى قاد إلى الجحود تمثلت في أصحاب الجنة.

ب - وقدم صورة للابتلاء بالغنى الذى قاد إلى الكفر البواح بالله سبحانه وتعالى، وتمثلت في صاحب الجنتين.

جـ - وقدم صورة للابتلاء بالغنى والعلم وكانت نتيجته الكفر والجحود، وتمثلت في قارون، وقد قاده كفره وجحوده إلى أن خسف الله به وبداره الأرض.

وفي الابتلاء بالضراء: قدم البحث الصور الآتية:

١ - الابتلاء فى الولد الوحيد: (إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام).

٢ - الابتلاء بالمرض: أيوب عليه السلام.

٣ - الابتلاء بالمرأة والسجن: يوسف عليه السلام.

٤ - الابتلاء فى الدين: أصحاب الأخدود.

وفى الابتلاء بالآيات: ثمود وناقة صالح.

* * *

وكان من ملامح المنهج في عرض هذه الصور:

١ - الاعتماد اعتماداً كلياً دائماً - أو غالباً - على المعروض القرآني من هذه الصور التاريخية.

٢ - استيفاء جوانب الصورة بما أورده المفسرون بشأنها.

٣ – عرض ما نخرج به من هذه القصص من حكم وعظات وقيم ودروس نافعة فى الدنيا والآخرة.

* * *

لقد ساق الله – سبحانه وتعالى – هذه الصور التاريخية والحكمة منها أكبر بكثير من إكساب الناس معارف ووقائع التاريخ، لأن هذه الوقائع يمكن أن تُنقل على ألسنة البشر جيلا عن جيل، إنما الحكمة الأساسية من وراء هذا القص هي «الاعتبار والامتثال»، وهذا ما حققه النبى ﷺ، وأخذ الصحابة والسلف الصالح أنفسهم به. لذا جاء **الفصل الرابع** يؤكد هذا الحكم، فقدمتُ فيه بعضاً «**من صور الابتلاء فى الأمة الإسلامية**» وهي أيضًا صور مختلفة للابتلاء، وإن دخلت كلها في نطاق «**الابتلاء بالضراء**».

والصورة الأولى: ابتلاء النبى ﷺ وأهله بحديث الإفك.

والصورة الثانية: ابتلاء الأمة بالجوع والطاعون.

والصورة الثالثة: ابتلاء العلماء، كما حدث للإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه.

وأيضاً وقفنا أمام هذه الصور نستخلص منها الدروس والعظات والتوجيهات التي أثرت وتؤثر في حياة المسلمين، وتشكيل الشخصية المسلمة.

ثم كانت الخاتمة تركيزاً وتأكيداً لفوائد الابتلاء ودروسه على سبيل الإيجاز، وبيان كيفية الإفادة منها في حياتنا الحاضرة في شتى المجالات وخصوصاً السلوكية والتربوية.

وأخيراً تقديم رؤية لما يمكن أن يكون حلا أو إنقاذاً للشعوب المسلمة والأقليات الإسلامية من المحن التى تستبد بها وتكاد تخنقها خنقاً.

وما توفيقي إلا بالله والحمد لله رب العالمين.

د. جابر قميحة

ذو القعدة ١٤١٩هـ

تـوطئـة

مفهـوم الابتلاء

في اللغة والسياق القرآني

الابتلاء في أصل اللغة هو الاختبار والامتحان. تقول: بلوت الرجل بلوا وبلاء وابتليته اختبرته، وبلاه يبلوه بلوا إذا جربه واختبره.

وابتلاه الله امتحنه، والاسم البلوى والبِلْوَة والبِلْية والبليّة والبلاء، وبليَ بالشيء بلاء وابتلى. والبلاء يكون في الخير والشر... ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1].

وقال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم   وأبلاهما خير البلاء الذى يبلو[2]

والبلاء الغم كأنه يبلى الجسم والتكليف بلاء لأنه شاق على البدن أو لأنه اختبار. والبلاء يكون منحة ويكون محنة[3].

ويقال أبلى في الحرب بلاء حسناً إذا أظهر بأسه حتى بلاه الناس وخبروه وكان له يوم كذا بلاء[4].

* * *

فالمعنى اللغوى المباشر للابتلاء هو الامتحان والاختبار. وبالنظر إلى موقف المبتلى ونتيجة هذا الابتلاء أو البلاء منحة للعبد إذا صبر وشكر، وإلا فهو محنة.

* * *

والفتنة تأتى بمعنى الابتلاء والاختبار تقول: فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته، فهو مفتون وفتين[5].

وقوله عز وجل: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾[6].

قيل معناه يختبرون بالدعاء إلى الجهاد، وقيل يفتنون بإنزال العذاب والمكروه[7].

وللفتنة معانٍ كثيرة أخرى منها: الضلال والإثم، والجنون، والكفر، والفضيحة، والعذاب. والقتل. والقتال. والإحراق بالنار. والإزالة. والصرف عن الشيء[8].

* * *

وجُعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يُستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء وهما فى الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً[9].

* * *

(١) سورة الأنبياء: [٣٥].

(٢) لسان العرب: ١/ ٣٥٥.

(٣) القاموس المحيط ١٦٣٢ (مادة بلى).

(٤) الزمخشرى: أساس البلاغة ٣٠ (مادة بلو).

(٥) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة ٤/ ٤٧٢.

(٦) سورة التوبة: [١٢٦].

(٧) لسان العرب ٥/ ٣٣٤٦.

(٨) انظر اللسان ٥/ ٣٣٤٤.

(٩) الراغب الأصفهانى: المفردات ٣٧٤.

وباستقراء السياق القرآني نجد أن مادة البلاء والابتلاء قد استُخدمت في الأغلب الأعم بمعنى الاختبار والامتحان بالنعمة أو المحنة أو بهما معاً، تستوى في ذلك الآيات المكية والآيات المدنية:

فمن الابتلاء بالنعم قوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ** (١٥) ﴾[١] .

ومن الابتلاء بالنقم قوله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ** (١٦) ﴾[٢] .

وقد يجمع الابتلاء بالسراء والضراء في آية واحدة كقوله تعالى: ﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** (١٦٨) ﴾[٣] .

واختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسارّ ليشكروا، وتارة بالمضارّ ليصبروا فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فصارت المنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر: بلينا بالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر»[٤] .

ويأتي «البلاء» بمعنى النعمة على سبيل القطع فلا يحتمل غير هذا المعنى كما نرى في قوله تعالى عن غزوة بدر ﴿ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** (١٧) ﴾[٥] .

أي ليعرّف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته[٦] .

وقد يحتمل (**البلاء**) أكثر من وجه كما ترى في قوله تعالى عن بني إسرائيل ﴿ **وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ** (٣٣) ﴾[٧] .

فقد ذكر القرطبي (للبلاء) في هذه الآية أربعة أوجه هي:

١ - نعمة ظاهرة، كقوله تعالى ﴿ **وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا** ﴾ .

٢ - عذاب شديد .

---

(١) سورة الفجر: [١٥].

(٢) سورة الفجر: [١٦].

(٣) سورة الأعراف: [١٦٨].

(٤) الراغب: المفردات ٧١.

(٥) سورة الأنفال: [١٧].

(٦) ابن كثير ٣/٣٤٧.

(٧) سورة الدخان: [٣٣].

٣ – اختبار يتميز به المؤمن من الكافر.

٤ – ابتلاؤهم بالرخاء والشدة[١].

وقد أشارت الآيات السابقة إلى بعض هذه الآيات التي آتاها الله بني إسرائيل، وهي:

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) ﴾[٢] .

* * *

وقد استعملت مادة (البلاء) في القرآن الكريم سبعاً وثلاثين مرة ما بين فعل واسم ومصدر على النحو التالي:

ست عشرة مرة فى آيات مكية، وإحدى وعشرين مرة فى آيات مدنية. منها آيتان مدنيتان في سورة الأعراف وهي مكية وهما الآيتان ١٦٣، ١٦٨:

– **﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) ﴾**[٣] .

– **﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) ﴾**[٤] .

واستخدمت مادة «الفتنة» في القرآن الكريم ثماني وخمسين مرة، منها ٢٧ مرة في آيات مكية و٣١ مرة في آيات مدنية. ومن هذه الآيات المدنية ست آيات وضعت في سور مكية.

هي على الترتيب النزولي:

– **﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) ﴾**[٥] .

– **﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) ﴾**[٦] .

– **﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ﴾**[٧] .

– **﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾**[٨] .

---

(١) القرطبي ٧/٥٩٦٣.
(٢) سورة الدخان: [٣٠–٣٢].
(٣) سورة الأعراف: [١٦٣].
(٤) سورة الأعراف: [١٦٨].
(٥) سورة طه: [١٣١].
(٦) سورة الإسراء: [٧٣].
(٧) سورة الأنعام: [٢٣].
(٨) سورة العنكبوت: [٢].

- ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[1] .

- ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[2] .

* * *

وتلتقي **الفتنة والابتلاء أو البلاء** في المعنى الرئيسي الذي أشرت إليه، وهو الامتحان والاختبار . . وهذا الاستعمال وارد بكثرة في القرآن الكريم . كما نرى في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[5].

وللفتنة من المعاني والمدلولات أكثر مما للبلاء أو الابتلاء فمن معاني الفتنة - كما ذكرنا من قبل - الضلال والإثم والجنون والكفر والفضيحة والعذاب والقتل والقتال والإحراق بالنار والإزالة والصرف عن الشيء[6] .

وقد استُخدمت الفتنة بكل هذه المعاني أو أغلبها في القرآن الكريم .

فاستُعملت بمعنى الجنون في قوله تعالى ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ ﴾[7] .

فالمفتون هنا بمعنى المجنون أو الجنون الذي رمى الكفار به رسول الله ﷺ وقد أقسم الله - سبحانه وتعالى - في مطلع السورة على نفي الجنون عن محمد ﷺ، وقد أنعم الله عليه بنعمة النبوة .

وتأتي الفتنة بمعنى الضلال أو الإضلال كما نرى في قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾[8] .

---

(١) سورة العنكبوت : [٣] .

(٢) سورة العنكبوت : [١٠] .

(٣) سورة الأنبياء : [٣٥] .

(٤) سورة الأنبياء : [١١١] .

(٥) سورة الأنفال : [٢٨] .

(٦) لسان العرب ٥ / ٣٣٤٦ .

(٧) سورة القلم : [٥، ٦] .

(٨) سورة المدثر : [٣١] .

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن خزنة النار ملائكة وأن عددهم تسعة عشر فلما سمع المشركون ذلك سخروا منه واستهانوا به وبذلك زادوا ضلالاً على ضلال، ويروى أن أبا جهل قال يوما: يا معشر قريش يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً، أفيعجز مائة رجل منكم عن رجل منهم؟ فأنزل الله ﴿ **وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة** ﴾(١) .

وقريب من هذا استخدام الفتنة بمعنى الشرك والكفر بالله. كما نرى في الآيات الثلاث الآتية:

– ﴿ **وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)** ﴾(٢) .

– ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)** ﴾(٣) .

– ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ** ﴾(٤) .

وتأتي الفتنة بمعنى التعذيب والإحراق، كقوله تعالى في شأن أصحاب الأخدود:

– ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠)** ﴾(٥) .

وفي سياق الحديث عن الكفار يقول تعالى ﴿ **يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣)** ﴾(٦) .

فالمشركون يسألون رسول الله – ﷺ – سؤال استهزاء وتكذيب: متى يوم القيامة. فجاء الجواب يوم هم يحرقون ويعذبون بعرضهم على جهنم(٧).

ويقول تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ...** ﴾(٨) .

فبعض الناس الذين يؤذون في شأن الله ولأجله كما يفعله أهل الكفر مع أهل الإيمان،

---

(١) التفسير الوجيز ٥٧٧. والسيوطي: لباب النقول ٢٢٤.
(٢) سورة البقرة: [١٩١].
(٣) سورة البقرة: [١٩٣].
(٤) سورة البقرة: [٢١٧].
(٥) سورة البروج: [١٠].
(٦) سورة الذاريات: [١٢، ١٣].
(٧) التفسير الوجيز ٥٢٢.
(٨) سورة العنكبوت: [١٠].

وكـمـا يفـعـله أهل المعـاصي مع أهل الطاعـات من إيقـاع الأذى عليـهـم لأجل الإيمان بالله والعمل بما أمر به (**جعل فتنة الناس**) التي هي ما يوقعونه عليه من الأذى (كعذاب الله) أي جزع من أذاهم، فلم يصبر عليه وجعله في الشدة والعظم كعذاب الله فأطاع الناس كما يطيع الله. وقيل هو المنافق إذا أوذي في الله رجع عن الدين فكفر(١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** (٢٥) ﴾(٢).

والمخاطب هنا هم المؤمنون والفتنة عذاب أو بلاء عام كالقحط أو المرض أو تسلط عدو، وهذه الفتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح ولا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم(٣).

* * *

ومن معاني الفتنة لغةً الإزالة والصرف عن الشيء، وقد ورد هذا الاستعمال في آيتين مدنيتين وإن جاءت الأولى في سورة مكية، والآيتان موجهتان لرسول الله ﷺ وهما:

- ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً** (٧٣) ﴾(٤).

- ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ... (٤٩)** ﴾(٥).

وعن مصدر الفتنة يقول الراغب الأصفهاني:

والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد كالبلية والمصيبة والقتل والعذاب وغير ذلك من الأفعال الكريهة، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضد ذلك نحو قوله ﴿ **وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ** ﴾ - ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ** ﴾(٦).

* * *

---

(١) فتح القدير ٤/ ٢٤٠.
(٢) سورة الأنفال: [٢٥].
(٣) فتح القدير: ٢/ ٣٧٣. وأيسر التفاسير: ٢/ ٢٩٧.
(٤) سورة الإسراء: [٧٣].
(٥) سورة المائدة: [٤٩]. وفي مناسبة نزول الآية ارجع إلى لباب النقول ٩٢.
(٦) المفردات في غريب القرآن ٣٧٤.

واستقراء السياق القرآني يقودنا إلى الفروق الآتية بين الفتنة والابتلاء أو البلاء:

١ – أن الفتنة أعم من الابتلاء حيث تأتي الفتنة على معان كثيرة، والابتلاء واحد من هذه المعاني.

٢ – والفتنة – من ناحية الكيف – أشد من الابتلاء. ويتضح ذلك من خلال المثالين التاليين:

– يقول تعالى: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)** ﴾(١).

ويقول تعالى فى شأن موسى – عليه السلام ﴿ **وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا (٤٠)** ﴾(٢).

والمراد بالابتلاء فى الآية الأولى اختباره بالتكاليف التى كلف الله إبراهيم عليه السلام بأدائها فظهر عزمه وامتثاله لتلك التكاليف حيث أتى بها كاملة، فجوزي عليها أعظم الجزاء.

والمراد بالفتنة في الآية الثانية تلك المحن والابتلاءات الشديدة التى مر بها موسى عليه السلام. ومنها قتله القبطي... والابتلاء بالقتل أشد – ولا شك – من الابتلاء بالقيام بالتكاليف الربانية.

٣ – تأتي أفعال الابتلاء أحيانا مسندة إلى الله – تعالى – بالاسم الظاهر مثل ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ .. (١٢٤)** ﴾(٣). ومثل ﴿ ... **إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ (٩٢)** ﴾(٤). وأحيانا يأتي الإسناد في أفعال الابتلاء إلى الضمير مثل ﴿ **ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ (١٥٢)** ﴾(٥). ومثل ﴿ **وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا (١٧)** ﴾(٦).

أما الفتنة فإننا لا نجد أن الأفعال منها تأتي مسندة إلى الاسم الظاهر من أسماء الله تعالى مطلقا، ولعل السبب في ذلك كون الفتنة تأتي على معانٍ غير حسنة مثل ﴿ **إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا (١٠١)** ﴾(٧).

فتنزيه الله – سبحانه وتعالى – يقتضى عدم إسنادها إلى اسمه الظاهر(٨).

٤– وتشترك مادتا «البلاء» و«الفتنة» فى ارتباط الاستعمال بوقائع ومواقف تاريخية قبل بعث الرسول ﷺ وأثناء حياته، ولكن ذلك أظهر وأكثر في مجال استخدام

---

(١) سورة البقرة: [١٢٤].
(٢) سورة طه: [٤٠].
(٣) سورة البقرة: [١٢٤].
(٤) سورة النحل: [٩٢].
(٥) سورة آل عمران: [١٥٢].
(٦) سورة الأنفال: [١٧].
(٧) سورة النساء: [١٠١].
(٨) انظر تفصيل هذين الفارقين في كتاب السحيباني (الفتنة وموقف المسلم منها في ضوء القرآن ٢٤ – ٢٨).

مادة الفتنة وأفعالها .

وقد يستأنس في تأييد ذلك أن الفعل الماضي من مادة الفتنة (فتنا . فتنوا . فتنتم) يزيد عددا على الأفعال الماضية من مادة (البلاء) . بينما تبلغ الأفعال المضارعة ثلاثة أمثال الأفعال الماضية من مادة (البلاء) وضعف الأفعال الماضية من مادة (الفتنة) .

* * *

ويفرق أبو هلال العسكرى بين التكليف والابتلاء : فالتكليف إلزام ما يشق إرادة الإنسانية عليه، وأصله في العربية اللزوم، ومن ثم قيل كَلِف بفلانة يكلف بها كلفا إذا لزم حبها، ومنه قيل الكلف في الوجه للزومه إياه، والمتكلف للشيء الملزم به على مشقة، وهو الذى يلتزم ما لا يلزمه أيضًا، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) ﴾[١] ومثله المكلف .

أما الابتلاء فهو استخراج ما عند المبتلى وتعرف حاله في الطاعة والمعصية بتحميله المشقة وليس هو من التكليف في شيء[٢] .

والفرق بين الابتلاء والاختبار أن الابتلاء لا يكون إلا بتحميل المكاره والمشاق، والاختبار يكون بذلك وبفعل المحبوب، ألا ترى أنه يقال اختبره بالإنعام عليه، ولا يقال ابتلاه بذلك، ولا هو مبتلى بالنعمة كما قد يقال اختبره بالإنعام عليه، ولا تقول ابتلاه بذلك، ولا هو مبتلى بالنعمة كما قد يقال إنه مختبر بها[٣] .

والفرق بين **الفتنة والاختبار** أن الفتنة أشد الاختبار وأبلغه، وأصله عرض الذهب على النار لتبين صلاحه من فساده، ومنه قوله تعالى :﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ﴾[٤] يكون في الخير والشر ألا تسمع قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾[٦] فجعل النعمة فتنة لأنه قصد بها المبالغة فى اختبار المنعم عليه بها كالذهب إذا أريد المبالغة في تعرف حاله أدخل النار[٧] .

وقد جانب التوفيق أبا هلال العسكرى في بعض ما ذكر فهو يرى أن الابتلاء لا يكون إلا بتحميل المكاره والمشاق، والاختبار يكون بذلك، وبفعل المحبوب، فيقال : اختبر

---

(١) وتمام الآية ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) ﴾ . . سورة ص [٨٦] . اى قل للكفار ما اطالبكم على تبليغ المنزل عليّ من القرآن وغيره من أجر تعطونيه . ولست من المتقولين القرآن من تلقاء نفسي أو المتصنعين المدعين النبوة والقول على الله وما لا علم لى به .

(٢) الفروق اللغوية ١٧٨ .

(٣) السابق نفس الصفحة .

(٤) سورة الذاريات : [١٣] .

(٥) سورة التغابن : [١٥] .

(٦) ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ . . . ﴾ الجن ١٦ ، ١٧ .

(٧) الفروق اللغوية ١٧٩ .

بالنعمة، ولا يقال: ابتلي بها.

وما ذهب إليه أبو هلال ينقضه الاستعمال اللغوي، والاستعمال القرآني، وقد جاء فيه البلاء يكون بالخير والشر وبالنعمة والنقمة كقوله تعالى: ﴿ **وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨)** ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)** ﴾ (٢).

وفي قوله تعالى مخاطبًا بنى إسرائيل ﴿ **وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)** ﴾ (٣) فسر البلاء بأنه النعمة أو المحنة (٤).

وبذلك يلتقى الاستعمال اللغوى والاستعمال القرآني.

* * *

ويرتبط الابتلاء في المعروض القرآني بكثير من القضايا والحقائق والمواقف والقيم.

ووراء كل معروض من هذه المعروضات كثير من الدروس والعبر والتوجيهات النافعة للأفراد والأمم والجماعات فى الدنيا والآخرة كما سترى فى الصفحات التالية.

---

(١) سورة الأعراف: [١٦٨].

(٢) سورة الأنبياء: [٣٥].

(٣) سورة الأعراف: [١٤١].

(٤) الكشاف ٢/١١١.

الفصل الأول

من هدي القرآن الكريم

في الابتلاء

(مواقف وحقائق ودروس وعبر)

أولا : الابتلاء وخلْق الإنسان

في الحديث عن خلق الإنسان يقول تعالى :﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾(١).

« فخلق الإنسان – أي الآدمي – وهو يملك آليات التمييز بين الخطأ والصواب والخير والشر؛ ليسأل عن أعماله يوم القيامة بعد مشاهدة الأدلة واستماع الآيات ».(٢) ويؤكد الله – سبحانه وتعالى – هذا المعنى ويفصله بقوله :﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾(٣). أي بينا له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر كما في قوله تعالى ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾(٤).

ويبين الله – سبحانه وتعالى – أن الابتلاء مرتبط بتكوين السموات والأرض، أصيل في نظام الكون وسنن الوجود، فيقول جل شأنه :﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . .** ﴾(٥).

لقد خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، وهنا فقرات كثيرة محذوفة يشير إليها ما بعدها فيغني عنها . .خلقها في هذا الأمد، لتكون صالحة ومجهزة لحياة هذا الجنس البشري، وخلقكم وسخر لكم الأوض وما يفيدكم من السموات، وهو سبحانه مسيطر على الكون كله « ليبلوكم أيكم أحسن عملا »، والسياق يظهر كأن خلق السموات والأرض فى ستة أيام – مع سيطرة الله، سبحانه على مقاليده – كان من أجل ابتلاء الإنسان ليعظم هذا الابتلاء، ويشعر الناس بأهميتهم وبجدية ابتلائهم.

وكما جهز الخالق هذه الأرض وهذه السموات بما يصلح لحياة هذا الجنس جهز هذا الجنس كذلك باستعدادات وطاقات، وبنى فطرته على ذات القانون الذي يحكم الكون، وترك جانبا اختياريا في حياته، يملك معه أن يتجه إلى الهدى فيعينه الله عليه ويهديه أو أن يتجه إلى الضلال، فيمد الله له فيه، وترك الناس يعملون ليبلوهم أيهم أحسن عملا، يبلوهم لا للعلم فهو يعلم، ولكن يبلوهم ليظهر المكنون من أفعالهم، فيتلقوا جزاءهم عليها كما اقتضت إرادة الله وعدله.

ومن ثم يبدو التكذيب بالبعث والحساب والجزاء عجيبا غريبا في هذا الجو، بعدما يذكر أن الابتلاء مرتبط بتكوين السموات والأرض، أصيل في نظام الكون وسنن الوجود(٦).

---

(١) سورة الإنسان : [٢].
(٢) التفسير الوجيز ٥٧٩ .
(٣) سورة الإنسان :[٣].
(٤) سورة البلد : [١٠] وانظر فتح القدير ٥ / ٤٣٠ .
(٥) سورة هود : [٧].
(٦) في ظلال القرآن ٤ /٨٥٨/–١٨٥٩ .

ونرى الارتباط نفسه في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾(١) الزينة كل ما على وجه، وكل ما على الأرض فيه زينة من جهة خلقه وصنعه وإحكامه.. وقد جعل الله ذلك امتحانا واختبارا لأهلها، فمنهم من يتدبر ويؤمن ومنهم من يكفر(٢).

ومن مظاهر ملك الله المطلق وقدرته التي لا يحدها حد أنه هو :﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾(٣).

والموت يشمل الموت السابق على الحياة والموت اللاحق لها، والحياة تشمل الحياة الأولى والحياة الآخرة، وكلها من خلق الله كما تقرر هذه الآية التي تنشىء هذه الحقيقة في التصور الإنساني، وتثير إلى جانبها اليقظة لما وراءها من قصد وابتلاء، فليست المسألة مصادفة بلا تدبير، وليست كذلك جزافا بلا غاية، إنما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسي على الأرض واستحقاقهم للجزاء على العمل « **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ».

واستقرار هذه الحقيقة في الضمير يدعه أبدا يقظا حذرا متلفتا واعيا للصغيرة والكبيرة في النية المستترة والعمل الظاهر، ولا يدعه يغفل أو يلهو، كذلك لا يدعه يطمئن أو يستريح، ثم يجيء التعقيب «وهو العزيز الغفور» ليسكب الطمأنينة في القلب الذي يرعى الله ويخشاه، فالله عزيز غالب، ولكنه غفور مسامح، فإذا استيقظ القلب، وشعر أنه هنا للابتلاء والاختبار، وحذر وتوقى، فإن له أن يطمئن إلى غفران الله ورحمته، وأن يقر عندها ويستريح(٤).

ويذكّر الله سبحانه وتعالى عباده بالموت. والموت هو الحقيقة التي لا يستطيع إنسان أن ينكرها مؤمنا كان أو كافرا ولا يستطيع حي أن يفلت منه :﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾(٥).

وهو الحقيقة التي تقررها وتؤكدها الآية الآتية :﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾(٦)؛ أي نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر(٧).

---

(١) سورة الكهف [٧].
(٢) القرطبي ٥/ ٣٩٧١.
(٣) سورة الملك [٢].
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٣٢.
(٥) سورة النساء [٧٨].
(٦) سورة الأنبياء: [٣٥].
(٧) الكشاف ٢/ ٥٧٢.

والابتـلاء بالخـيـر أشـد وطأة، وإن خـيل للناس أنه دون الابتـلاء بالشـر. إن كـثـيـرين يصمدون للابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير.. فالابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء، ويستحث المقاومة، ويجند الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيرخي الأعصاب، وينيمها، ويفقدها القدرة علي اليقظة والمقاومة، لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح، حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء، وذلك شأن البشر إلا من عصمه الله.

فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولي من اليقظة في الابتلاء بالشر، والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان[1].

---

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٧٨.

ثانيا: الابتلاء والجحود

يقول تعالى :﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ** ﴾(١). إنها طبيعة الإنسان الكافر الذي يبطر عند الرخاء ويقنط عند الضراء: فإذا ما اختبره وامتحنه ربه بالنعمة، وجعله منعما في الدنيا بالبنين والجاه والسلطان قال ربي أحسن إليّ بما أعطاني من النعم التي أستحقها، ولم يعلم أن هذا ابتلاء له أيشكر أم يكفر؟..

وأما إذا اختبره وامتحنه ربه بالفقر وتضييق الرزق فيقول غافلا عن الحكمة إن ربي أهانن بتضييق الرزق عليّ.. وإنما أنكر تعالى على الإنسان قوله «ربي أكرمن» وقوله «ربي أهانن»؛ لأنه إنما قال ذلك على وجه الفخر والكبر، لا على وجه الشكر، وقال أهانن على وجه التشكي من الله وقلة الصبر، وكان الواجب عليه أن يشكر على الخير، ويصبر على الشر(٢).

إنها طبيعة الكفران والجحود والتكبر التي عبرت عنها آيات متعددة منها قوله تعالي: ﴿ **فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾(٣).

فمثل هذا الجاحد يرى أن مثل هذه النعمة التي جاءته بعد كرب وضراء، إنما أعطيها على خبرة ومعرفة وذكاء وعلم منه بوجود الكسب(٤). إنه منطق قارون الذي قال ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي..** ﴾(٥).

ويقدم القرآن مثالا عمليا مشهودا لهؤلاء الجاحدين في هذه الصورة الرائعة ﴿ **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ..** ﴾(٦).

---

(١) سورة الفجر [١٥،١٦].

(٢) الصابوني: صفوة التفاسير ٣/٥٥٨.

(٣) سورة الزمر [٤٩].

(٤) التفسير الوجيز ٤٦٥.

(٥) سورة القصص [٧٨].

(٦) سورة يونس: [٢٢ - ٢٣].

ثالثا : الابتلاء بين الصبر والشكر

من مزايا الابتلاء ارتباطه عضويا بفضيلتين نفسيتين لا يخلو منهما معجم المسلم السوي وهما : الصبر والشكر، وتبدو العلاقة بين الابتلاء وبينهما علاقة سببية، فالابتلاء – غالبا – يؤكد هاتين الفضيلتين: فالصبر وليد الضراء، والشكر وليد السراء، وقد يرقى المسلم في الضراء إلى مقام الصبر والشكر معا. كما نرى فيما نقله خلف بن إسماعيل الخزاعي قال: «سمعت رجلا من الزمْنَى (مرضى الجذام) يقول: إن كنتَ إنما ابتليتنَي لتعرف صبري فأفرغَ عليّ صبرا يبلغني رضاك عني، وإن كنت إنما ابتليتني لتثيبني وتأجرني، وتجعل بلاءك لي سببا إلى رحمتك بي، فمَنْ من عبادك أعظم نعمة ومنّة مننت بها علي؛ إذ رأيتني لاختبارك لها أهلا، فلك الحمد على كل حال، فأنت أهل كل خير، وولي كل نعمة»(١).

والصبر – كما يقول ابن القيم – آخيَّة(٢) المؤمن الذي يجول، ثم يرجع إليها، وساقُ إيمانه الذي لا اعتماد له إلا عليها، فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن كان فإيمان قليل في غاية الضعف، وصاحبه ممن يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ولم يحظ منهما إلا بالصفقة الخاسرة.

فخير عيش أدركه السعداء بصبرهم، وترقوا إلى أعلي المنازل بشكرهم، فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم(٣).

* * *

وقد أبرز القرآن الكريم قيمة الصبر، وآثاره في الدنيا والآخرة ومكانة الصابرين وجزاءهم. قال تعالى ﴿ **وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾(٤). فظفر الصابرون بهذه المعية، بخيرى الدنيا والآخرة، وفازوا بها بنعمه الباطنة والظاهرة.

وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين فقال تعالى ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾(٥).

وأخبر أن الصبر خير لأهله مؤكدا باليمين ﴿ **وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴾(٦).

وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط؛ فقال تعالى :

---

(١) ابن أبي الدنيا: الصبر والثواب عليه ٥٢.

(٢) الآخية مثل عروة تشد إليها الدابة.

(٣) ابن القيم: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ٢١.

(٤) سورة الأنفال: [٤٦].

(٥) سورة السجدة: [٢٤].

(٦) سورة النحل: [١٢٦].

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾(١).

وأخبر عن نبيه يوسف الصديق أن صبره وتقواه وصّلاه إلى محل العز والتمكين، فقال: ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٢).

وعلق الفلاح بالصبر والتقوى، فعقل عنه ذلك المؤمنون؛ فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾(٣).

وأخبر عن محبته لأهله، وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين؛ فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) ﴾(٤).

وقد بشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون؛ فقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾(٥).

وأوصى عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة على نوائب الدنيا والدين؛ فقال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾(٦).

وأخبر أن الرغبة في ثوابه والإعراض عن الدنيا وزينتها لا ينالها إلا أولو الصبر المؤمنون؛ فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) ﴾(٧).

وأخبر سبحانه خبرا مؤكدا بالقسم: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾(٨).

وأمر رسوله ﷺ بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره إنما هو لربه، وبذلك جميع المصائب تهون؛ فقال: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا (٤٨) ﴾(٩)، وقال: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾(١٠).

* * *

(١) سورة آل عمران [١٢٠].
(٢) سورة يوسف: [٩٠].
(٣) سورة آل عمران: [٢٠٠].
(٤) سورة آل عمران: [١٤٦].
(٥) سورة البقرة: [١٥٥].
(٦) سورة البقرة: [٤٥].
(٧) سورة القصص: [٨٠].
(٨) سورة العصر: [٢ - ٣].
(٩) سورة الطور: [٤٨].
(١٠) سورة النحل: [١٢٧ - ١٢٨].
انظر: ابن القيم: عدة الصابرين ١٨ - ٢١.

فالصبر هو ملاذ المبتلَى، ومن أشهر الصابرين المحتسبين نبي الله أيوب عليه السلام، فكان صبره على ما ابتلي به من المرض الطويل مضرب المثل في كل العهود.

ونشير هنا إلى ما جاء على لسان نبي الله يعقوب في محنتيه اللتين فرجهما الله بعد ذلك وهما فقْد ابنه الحبيب يوسف.. وكان رده على إخوته حين أتوا على قميصه بدم كذب مدعين أنه أكله الذئب ﴿ .. **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**(١٨) ﴾[١].

والمحنة الثانية حين عاد أبناؤه إلى أبيهم بدون ابنه بنيامين بدعوى أنه سَرق وحُجز فى مصر: ﴿ **قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** (٨٣) ﴾[٢].

وفى المحنتين لم يجد يعقوب ما يتحلى به إلا الصبر، وفى الحالين يصف الصبر بأنه صبر جميل. والصبر الجميل هو الصبر الذى لا جزع فيه[٣]، وقال بعضهم: ثلاث من الصبر؛ أن لا تحدِّث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك[٤].

ونلاحظ أن يعقوب عليه السلام يربط (الصبر الجميل) في الآية الأولى (بالله المستعان)، ويربطه في الآية الثانية (بالله المرجوّ المأمول) وقد يكون هذا سرا من أسرار وصف الصبر بالجمال.

وقال بعضهم: «ذكر الله عز وجل في كتابه: الصبر الجميل، والهجر الجميل، والصفح الجميل، فالصبر الجميل هو الذى لا شكوى معه، والهجر الجميل هو الذى لا أذى معه، والصفح الجميل هو الذى لا عتاب معه»[٥].

ولعل من أوْفى ما ذكر في هذا المقام ما قاله خلف بن إسماعيل الخزاعي: إن من شروط الصبر أن تعرف كيف تصبر؟ ولمن تصبر؟ وما تريد بصبرك؟ وتحتسب في ذلك، وتحسن النية فيه؛ لعلك أن يخلص لك صبرك، وإلا فإنما أنت بمنزلة البهيمة نزل بها البلاء فاضطربت لذلك، ثم هدأ فهدأت، فلا هي عقلت ما نزل بها فاحتسبت وصبرت، ولا هي عرفت النعمة حين هدأ ما بها فحمدت الله على ذلك وشكرت[٦].

* * *

وقد عرفنا أن الابتلاء يكون كذلك بالنعماء والسراء، وهذا يستوجب شكر الله فهو المنعم المانح. ولأهمية هذه السمة قرن سبحانه الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في

---

(١) سورة يوسف: [١٨]، سولت: زينت. تصفون: تكذبون.

(٢) سورة يوسف: [٨٣].

(٣) تفسير الطبرى ١٢/ ٢١٦.

(٤) السابق ٢١٧، ١٣/ ٥٠.

(٥) ابن أبى الدنيا: الصبر، هامش ٨٣.

(٦) ابن أبي الدنيا: السابق، ٥٣، ولعله متأثر بقول على بن أبى طالب: فإنك إن لم تسْلُ احتسابا سلوت سلو البهائم.

عـذاب خلقـه إن شكروا وآمنوا به؛ فـقـال: ﴿ **مَـا يَفْـعَلُ اللَّهُ بِعَـذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ (١٤٧)** ﴾[١].

وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال: ﴿ **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)** ﴾[٢].

وقسم الناس إلى شكور وكفور، فقال في الإنسان: ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)** ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ **إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ (٧)** ﴾[٤].

ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأغلاها جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه؛ فقال: ﴿ **ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)** ﴾[٥].

وقال الحسن: إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر، فإن شكروه كان قادرا على أن يزيدهم، وإن كفروه كان قادرا على أن يبعث نعمته عليهم عذابا[٦].

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: ما قلب عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعْمة أنعم الله بها عليه إلا قال: اللهم إني أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفرا، وأن أكفرها بعد أن عرفتها، وأن أنساها ولا أثني عليها[٧].

---

(١) سورة النساء: [١٤٧].
(٢) سورة الأنعام: [٥٣].
(٣) سورة الإنسان: [٣].
(٤) سورة الزمر: [٧].
(٥) سورة الأعراف: [١٧]، وانظر عدة الصابرين ١٥٠ – ١٥٢.
(٦) السابق: ١٥٧.
(٧) السابق: ١٥٩.

رابعاً : الابتــلاء والتمايز بين النــاس

يقـول تعـالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥) ﴾(١).

يقول الفخر الرازى فى تفسيره : اعلم أن في قوله : ﴿ جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ ﴾ وجوهاً : أحدها جعلهم خلائف الأرض؛ لأن محمداً عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين فخلفت أمته سائر الأمم.

وثانيها : جعلهم يخلف بعضهم بعضاً.

وثالثها : أنهم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها.

ثم قال : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .... ﴾ في الشرف والعقل والمال والجاه والرزق.

وإظهار التفاوت ليس لأجل العجز والجهل والبخل، فإنه تعالى متعال عن هذه الصفات، وإنما هو لأجل الابتلاء والامتحان، وهو المراد من قوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾(٢)، فابتلى الموسر بالغنى وطلب منه الشكر، وابتلى المعسر بالفقر وطلب منه الصبر(٣).

وهذا قريب من قوله تعالى : ﴿ ... وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾(٤).

أى أن الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس مؤمن وكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغنى فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغنى، ومعنى هذا أن كل واحد مختبَرٌ بصاحبه، فالغنى ممتحَن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه، والفقير ممتحن بالغنى عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق... والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره، وكذلك العلماء وحكام العدل... فالفتنة أن يحسد المبتلَى المعافَى، ويحقر المعافَى المبتلَى، والصبر أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذاك عن الضجر(٥).

وعلى كل منهما أن يعتبر بالوقائع والأحوال، فالحياة لا تدوم على توقف، ولكن الأمور والأحوال في حركة وتغير لا ينكره أحد : فالصحيح يمرض، والغني يفتقر، والقوي يضعف، والعزيز يذل، والنعمة في الدنيا إلى زوال.

---

(١) سورة الأنعام : [١٦٥].
(٢) الفخر الرازى ٤ / ١٧٧.
(٣) القرطبي ٣ / ٢٥٩٤.
(٤) سورة الفرقان : [٢٠].
(٥) القرطبي ٦ / ٤٧٣٤.

خامساً : الابتلاء والآخرة

المعروف – وهو المطرد في السياق القرآني – أن الابتلاء – بمعنى الاختبار والامتحان – لا يكون إلا في الدنيا لأنه مرتبط بالأعمال والتكاليف، وعليها يكون الثواب والعقاب، ولكن جاءت مادة الابتلاء فى الآخرة، وذلك في آيتين هما بترتيب النزول :

– ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) ﴾(١).

– ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) ﴾(٢).

فالآية الأولى جاءت بعد بيان قدرة الله – سبحانه وتعالى – على الخلق... وخصوصاً خلق الإنسان من ماء دافق يخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، فيختلط الماءان ويكون الإنسان الذى يعيش حياته ثم يموت، ويكون بعثه دالاً على قدرة الله... فهو قادر على إرجاعه حيّاً كما كان وأعظم مما كان، وذلك يوم القيامة يوم تبلى السرائر أى تختبر وتمتحن لإظهار ماكان مستوراً مخبوءاً فيها من كفر وإيمان وخير وشر(٣).

* * *

وتأتى الآية الثانية (وهى الثلاثون من سورة يونس) وخلاصة معناها أنه فى يوم الحشر – في ذلك الموقف الرهيب – تختبر كل نفس ما قدمت في دنياها وتعرفه : هل هو ضار بها أو نافع لها؟ ويومها يجد المخلوقون أنفسهم أمام مولاهم ومالك أمرهم ومعبودهم الحق الذى طالما كفروا به، وتنكروا له، وجحدوا آياته ورسله، وضل : أي غاب عنهم ما كانوا يفترونه من الأكاذيب والترهات والأباطيل من تلك الأصنام التى سموها آلهة وعبدوها وندموا يوم لا ينفع الندم، وجزاهم بما لم يكونوا يحتسبون(٤).

---

(١) سورة الطارق : [٩].

(٢) سورة يونس : [٣٠].

(٣) أيسر التفاسير ٥ / ٥٥٤ .

(٤) السابق ٢ / ٢٦٨ .

سادساً : ابتلاء المسلمين فى العهد المدنى

لما اشتد إيذاء الكفار للنبى ﷺ وللمسلمين، مهد النبى ﷺ سبيل الهجرة إلى المدينة ببيعتى العقبة الأولى والثانية. والهجرة هذه المرة تختلف عن هجرة المسلمين إلى الحبشة من عدة وجوه؛ إذ كانت الهجرة إلى الحبشة هدفها الأساسى البعد عن مكة؛ أرض الظلم والاضطهاد والتعذيب والجبرية؛ بحثاً عن الأمان والسلامة الذاتية.

أما هجرة النبى – عليه السلام – إلى المدينة فلم تكن فراراً من أجل حماية النفس –وإن كان الحفاظ على الحياة وسلامة النفس مما يدعو إليه الدين – ولكن الهجرة كانت لهدف أساسى هو «نشر الدعوة وتوسيع دائرتها»، لقد أصبحت تربة مكة قاحلة شمطاء ترفض البذر، ولا تقبل الماء، وتحاول أن تخنق كل عود أخضر وتمتص كل نبات جديد.. نعم لابدّ من تربة جديدة... ومعاناة جديدة، وعمل متواصل حتى تؤتي الدعوة ثمارها.

وكانت الهجرة إلى ما «هو أصلح»، ولكنها لم تكن إلى ما «هو أسهل» وآثر النبى ﷺ أن يتحمل مزيداً من الأثقال والأعباء فى سبيل الوصول إلى نتائج مثمرة، ونكتشف أن محمداً ﷺ كان فى مكة يواجه عدوا واحداً يتمثل فى الكفار، ولكنه فى المدينة أصبح يواجه أعداء متعددين وجبهات متعددة: فهناك المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول الذى عاش – بعد وصول النبى ﷺ – يغلي قلبه بالحقد، وتفور نفسه بالنقمة؛ لأن ذلك الوافد الجديد سحب «الأرض من تحت رجليه» وحرمه «تاج الملك» وكان قاب قوسين منه أو أدنى.

وهناك اليهود: خيبر وبنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع.. قبائل غنية منيعة، تبحث عن «أمجاد مدفونة»، وكانت تطمع أن يمالئها النبي الجديد، ولكن خاب فألهم.

وهناك الفرس والروم وقد بدأت عيونهم تتجه نحو المدينة (يثرب)، وترصد خطوات هذا الوافد الجديد الذى غير موازين القوى وموازين العقيدة فى المنطقة.

أما قريش فمازالت على عدائها، بل إن حقدها ازداد تضرما، وغضبها ازداد تسعرا؛ فقد عز عليها أن يفلت من قبضتها محمد ومن معه من المستضعفين.

نعم، خرج محمد ﷺ إلى «الأصلح والقابل» وإن كان هو «الأعتى والأصعب»، وهذا هو الفيصل الحاسم بين «الهجرة» بمفهومها التشريعى الإنسانى، والفرار بمفهومه

المفزوع المهزوم(١).

ومن ثم كان لابد من إعداد النفوس لمجابهة هذه الجبهات العاتية التي تريد بالإسلام والمسلمين الشر والإضرار، بل المحق والاستئصال. وابتداء لابد أن يكون المسلم على قناعة واقتناع بأن الابتلاء هو أساس الدعوات «فالإيمان أمانة الله فى الأرض، لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة، وفى قلوبهم تجرد لها وإخلاص، وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة، وعلى الأمن والسلامة، وعلى المتاع والإغراء، وإنها لأمانة الخلافة فى الأرض، وقيادة الناس إلى طريق الله وتحقيق كلمته في عالم الحياة، فهي أمانة كريمة، وهى أمانة ثقيلة وهى من أمر الله يضطلع بها الناس، ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء»(٢).

فلا عجب أن يكون من أوائل الآيات المدنية التى تعرض هذه الحقيقة ما جاء فى سورة العنكبوت:

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) ﴾(٣).

ولا نقف عند الخلاف فى مكية هذه الآيات أو مدنيتها؛ فالعنكبوت – على افتراض مكية آياتها كلها أو أغلبها – لم ينزل بعدها فى مكة إلا سورة «المطففين» آخر السور المكية نزولا. فالعنكبوت بهذا الاعتبار قريبة العهد زمانيا من القرآن المدنى الذى كانت أول سورة منه نزولا هى سورة البقرة.

ويذكر المفسرون أسماء الأشخاص الذين نزلت فيهم الآيات الأولى من سورة البقرة ومناسبة هذا النزول(٤).

ولكن اللفظ عام لأن اسم الجنس إذا دخلت عليه (أل) أفادت استغراق جميع أفراده، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهو ما ينبهنا إليه ابن عطية من أن

---

(١) انظر: جابر قميحة «أدب الرسائل فى صدر الإسلام» ٤٣ – ٤٤.

(٢) فى ظلال القرآن ٥ / ٢٧٢٠.

(٣) سور العنكبوت: [٢، ٣].

وسورة العنكبوت مكية كلها، وهو قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية كلها فى أحد قولى ابن عباس وقتادة، وفى القول الآخر لهما –وهو قول يحيى بن سلام– إنها مكية إلا عشر آيات من أولها، فإنها نزلت بالمدينة فى شأن من كان من المسلمين بمكة. وقال على بن أبى طالب –رضى الله عنه– نزلت بين مكة والمدينة.

[القرطبى ٦ / ٥٠٣٩] وانظر للسيوطى: لباب النقول ١٦٦].

(٤) قال ابن عباس وآخرون: يريد بالناس قومًا من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذوتهم، ويعذبونهم على الإسلام كسلمة بن هشام، وعياش بن أبى ربيعة، والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر، وياسر أبوه، وسمية أمه، وعدة من بنى مخزوم وغيرهم، فكانت صدورهم تضيق بذلك، وربما استنكر أن يمكن الله الكفار من المؤمنين [القرطبى ٦/٥٠٣٩].

هذه الآيات «وإن نزلت بهذا السبب أو ما فى معناه من الأقوال فهى باقية في أمة محمد ﷺ، موجود حكمها بقية الدهر، وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك»(١).

فالآية تنص على أصل ثابت من أصول الدعوات وهو ابتلاء الله عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء»(٢).

وقد نزلت الآيات تترى تؤكد هذا المعنى وترسخ هذه القاعدة لقوله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾(٣).

وقوله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)﴾(٤).

وقوله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)﴾(٥).

* * *

وحتى يقابل المسلمون الابتلاء بالصبر والمحن بالثبات، يذكر الله سبحانه وتعالى أن الابتلاء سنة ماضية في الدعوات لا تتخلف، وليست خاصة بالمسلمين كابتلاء إبراهيم بالنار، وأيوب بالمرض، وما فعله أصحاب الأخدود بالمؤمنين، والبلاء أو الفتنة هى التى تميز الصادقين من الكاذبين، ومن يعبد الله عن يقين، ممن يعبد الله على حرف، «وما بالله – حاشا لله – أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقى لتحمل الأمانة، فهى فى حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقى على الشهوات وإلا بالصبر الحقيقى على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية

---

(١) القرطبى ٦/٥٠٤٠.
(٢) ابن كثير ٦/١٦٨.
(٣) سورة البقرة: [٢١٤].
(٤) سورة آل عمران [١٤٢].
(٥) التوبة ١٦، والوليجة: البطانة والأولياء.

فى نصر الله أو فى ثوابه، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء.

والنفس تصهرها الشدائد فتنفى عنها الخبث وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات فلا يبقى صامداً إلا أصلبها عوداً، وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالاً بالله وثقة فيما عنده من الحسنيين: النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلَّمون الراية فى النهاية، مؤتَمنين عليها بعد الاستعداد والاختيار»(١).

* * *

وحتى يُهيَّأ المسلمون لتلقى ضربات المحنة ومكائد أعداء الحق والدين، وما ينزل بهم من مكاره وضراء في المجتمع الجديد يوجه الله سبحانه وتعالى الخطاب إليهم عارضاً ما سيقع عليهم من أثقال البلاء، وموجهاً أنظارهم لما يجب أن يكونوا عليه لمواجهة ما يحل بهم.

وإذا كانت آيات مطلع العنكبوت مختلَفاً على مكان نزولها، فإن سورة البقرة مدنية بلا خلاف، كما أنها أول سورة نزلت في المدينة، وفيها يوجه الله – سبحانه وتعالى – أنظار المسلمين إلى أنهم سيكونون موضع اختبار وابتلاء من الله سبحانه وتعالى، فيقول:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾(٢).

فهنا قسم من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين على أن يبتليهم بشيء من الخوف بوساطة أعدائه وأعدائهم وهم الكفار عندما يشنون الحروب عليهم، وبالجوع لحصار العدو، ولغيره من الأسباب، وبنقص الأموال كموت الماشية للحرب والقحط، وبالأنفس كموت الرجال، وبفساد الثمار بالجواع، كل ذلك لإظهار من يصبر على إيمانه وطاعة ربه بامتثال أمره واجتناب نهيه، ومن لا يصبر فيحرم ولاية الله وأجره، ثم أمر رسوله بأن يبشر الصابرين(٣).

ويظهر فضل الله تعالى ورحمته إذ جعل الابتلاء «بشيء» أى بقليل من ذلك، فإن ما وقاهم عنه أكثر بالنسبة إلى ما أصابهم بألف مرة، وكذا ما يصيب به معانديهم، وإنما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه نفوسهم ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به، وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة حميدة(٤).

---

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٧٢١.
(٢) سورة البقرة: [١٥٥].
(٣) أيسر التفاسير ١ / ١٣٤.
(٤) تفسير أبى السعود ١ / ٣٩.

إنها - كما يقول سيد قطب - التعبئة الحقيقية للصف الإسلامى، التعبئة فى مواجهة المشقة والجهد والاستشهاد والقتل والجوع والخوف ونقص الأموال والأنفس والثمرات، التعبئة فى هذه المعركة الطويلة الشاقة العظيمة التكاليف(١).

وكان الإخبار من قبل عن الابتلاء بشىء من الخوف والجوع ونقص فى الماديات، ولكن مع اتساع دائرة الدعوة وازدياد المتربصين بها يأتى الإخبار للمؤمنين بأن الابتلاء سيكون بما هو أكثر وأوسع مدى.

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦) ﴾(٢).

وقد خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الأذى والشدائد والصبر عليها، حتى إذا لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغتة، فينكرها وتشمئز منها نفسه(٣).

فإذا كانت فائدة الابتلاء هى تمييز الخبيث من الطيب فإن فائدة الإخبار به التعريف بالسنن الإلهية، وتهيئة المؤمن لها، وحمله على الاستعداد لمقاومتها؛ فإن من تحدث له النعمة فجأة - على غير استعداد ولا سعى ترجى هى من ورائه - تدهشه وتبطره، وربما تهيج عصبه، فيقع فى داء، أو يموت فجأة، وكذلك من تقع به المصيبة فجأة على غير استعداد يعظم عليه الأمر، ويحيط به الغم حتى يقتله في بعض الأحيان، أما المستعد فيكون ضليعاً قوياً(٤).

والآية تعرض نوعين من الابتلاء:

أولهما الابتلاء في الأموال والأنفس، فالابتلاء فى الأموال يكون «بالمصائب والإنفاقات الواجبة وسائر التكاليف الشرعية المتعلقة بالأموال، والابتلاء في الأنفس بالموت والأمراض وفقد الأحباب والقتل في سبيل الله(٥).

وقدم ذكر المال لأنه الوسيلة التي يكون بها الاستعداد لبذل النفس، فبذل المال يُحتاج إليه قبل بذل النفس، أو لأن الإنسان كثيراً ما يبذل نفسه دفاعاً عن ماله(٦).

والنوع الثانى من الابتلاء هو ما يمكن أن نسميه بالمصطلح الحديث «بحرب الإشاعات» أو «الحرب الكلامية» كالأهاجي التي كان كعب بن الأشرف ينسجها في الرسول ﷺ، والأكاذيب والتهكم على القرآن من فنحاص اليهودي، وحديث الإفك

---

(١) فى ظلال القرآن ١/١٤٦.
(٢) سورة آل عمران: [١٨٦].
(٣) الكشاف ١/٤٨٦.
(٤) محمد عبده - المنار ٤/٢٧٥.
(٥) فتح القدير ١/٥١٣.
(٦) المنار السابق، نفس الصفحة.

على عائشة زوج الرسول ﷺ، وتأليب اليهود قريشاً لقتال الرسول ﷺ(١)، ومما كان يسمعه المسلمون من اليهود قولهم «عزير ابن الله» ومن النصارى قولهم «المسيح ابن الله»(٢).

وقد وجه الله – سبحانه وتعالى – المسلمين إلى التصدى لهذه الابتلاءات بقيمتين نفسيتين ساميتين، وهما الصبر والتقوى.

«والصبر هو تلقي المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه مع الروية في دفعه ومقاومة ما يحدثه من الجزع، فهو مركب من أمرين: دفع الجزع ومحاولة طرده، ثم مقاومة أثره حتى لا يغلب على النفس وإنما يكون ذلك مع الإحساس بألم المكروه فمن لا يحس به لا يسمى صابراً، وإنما هو فاقد للإحساس يسمى بليداً.... وما أحسن قرن التقوى بالصبر في هذه الموعظة، وهى أن يمتثل ما هدى الله إليه فعلاً وتركا عن باعث القلب، وذلك من عزم الأمور، أى التي يجب أن تعقد عليها العزيمة وتصح فيها النية وجوباً محتماً لا ضعف فيه»(٣).

ونلاحظ أن الله سبحانه وتعالى فى آيتى البقرة وآل عمران قد حدد مواضع الابتلاء أو موضوعاته وهى الخوف والأموال والأنفس والثمرات والدعايات والإشاعات المغرضة الخبيثة، ولكن الله يخاطب المؤمنين بعد ذلك بقوله:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾(٤).

فهنا إخبار بالابتلاء دون تحديد، فهو يتسع لكل أمور التكاليف والسراء والضراء، حتى يظهر المجاهد المتمثل من القاعد الهلوع، والصابر من الضاجر، «ونبلو أخباركم»؛ أى ما تخبرون به عن أنفسكم، وتتحدثون به، فنظهر الصدق من خلافه فيه، ولذا كان الفضيل بن عياض – رحمه الله تعالى – إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: «اللهم لا تبتلنا؛ فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا»(٥).

* * *

وكانت المواجهات الحربية بين المسلمين والكفار مجال اختبار حقيقى لكشف المعدن النفيس من المعدن الرخيص والمؤمن من المنافق وطالب الآخرة من طالب الدنيا، ومن ذلك ما جاء فى شأن أحد(٦).

---

(١) انظر فى تفصيل ذلك: تفسير ابن كثير ٢/١٠٨ – ١٠٩، وارجع إلى كتاب «الابتلاءات» لمحمود بن عبد الله المطر وخصوصاً الصفحات ١٠١ إلى ١٣١.

(٢) فتح القدير ١/٥١٥.

(٣) محمد عبده، تفسير المنار ٤/٢٧٧.

(٤) سورة محمد: [٣١] (وسورة البقرة هى الأولى نزولاً وآل عمران الثالثة ومحمد التاسعة وذلك فى السور المدنية).

(٥) فتح القدير ٥/٨٨.

(٦) الواحدى: أسباب النزول ١٠٧.

قال محمد بن كعب القرظي : « ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصيبوا مما أصيبوا يوم أحد قال ناس من أصحابه : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فنزل قوله تعالى : **﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ﴾**(١).

وكان رسول الله ﷺ قد خرج إلى أحد وهو فى سبعمائة رجل، وقريش في ثلاثة آلاف، وأمّر على الرماة عبد الله بن جبير، والرماة خمسون رجلاً فقال : انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك(٢).

وكانت المعركة فى كل مراحلها ومواقفها ابتلاء كشف عن حقيقة الرجال ومدى ثباتهم على الحق :

١ - فكشفت عن حقيقة المنافقين قبل أن تبدأ المعركة، فبعد أن سار الجيش وكانوا بين المدينة وأحد انخذل عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الجيش، وكر راجعاً بهم وهو يقول : « عصانى وأطاع الولدان ومن لا رأى له، وما ندرى علام نقتل أنفسنا »(٣).

٢ - وكان البلاء الثانى هو بلاء النصر وانكشاف المشركين منهزمين لا يلوون على شيء، واعتقد بعض الرماة أن الحرب قد وضعت أوزارها، فشدهم بريق الغنائم فانحدر أغلبهم إلى ساحة القتال لأخذ الغنائم، ولم يثبت مع عبد الله بن جبير إلا عدد يسير. وتمكن خالد من اقتحام هذه الثغرة بخيله، وقتل من بقى من الرماة وأميرهم، واستشهد من المسلمين عدد كبير، وخلص الكفار إلى رسول الله ﷺ ورموه بالحجارة فكسرت رباعيته، وشج وجهه.

٣ - وكان الابتلاء الثالث - وهو أشدّها - ما أشاعه الكفار من قتل محمد، فزاد المسلمون انكشافاً وفر كثير منهم، وتوقف بعضهم عن القتال، ولكن كان هناك قمم شامخة من الرجال ظهروا في شدة هذا البلاء، قال ابن إسحاق : انتهى أنس بن النضر - عم أنس بن مالك - إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال : ما يجلسكم؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ، قال : فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول

---

(١) سورة آل عمران : [١٥٢] - تحسونهم : تقتلونهم.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٦٥ - ٦٦، انضح : ادفع.

(٣) البوطى : فقه السيرة النبوية ٢٥٦، وهو يقصد خروج النبى ﷺ لقتال قريش. مع أن النبى كان يرى التحصن بالمدينة ولكنه استجاب للرأى الآخر، وكان كثير ممن يرى الخروج من الشباب، ولكن سوء النية والغدر المبيت واضح فى تصرف رأس المنافقين عبد الله بن أبىٍّ وإلا لبقى بالمدينة وما خرج.. وانسحابه بمن معه نزل بعدد جيش المسلمين من ألف إلى سبعمائة، بينما كان جيش الكفار ثلاثة آلاف.

الله ﷺ، فقاتل حتى قتل ووجدوا به يومئذ سبعين ضربة، فما عرفته إلا أخته، عرفته ببنانه(١).

٤ – وتجلى في هذه الأثناء مظهر رائع للتضحية والفداء ممن كانوا حول رسول الله ﷺ من الصحابة، فراحوا يقدمون أرواحهم رخيصة دون رسول الله حتى قتل معظمهم... منهم أبو دجانة الذى جعل من نفسه ترساً يحمى رسول الله ﷺ والنبل يتلاحق في ظهره وهو منحنٍ عليه لا يتحول، وكذلك زياد بن السكن حتى قتل هو وخمسة من أصحابه(٢).

فيوم أحد – كما قال ابن إسحاق – كان يوم بلاء ومصيبة وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين ومحن به المنافقين، ممن كان يظهر الإيمان بلسانه، وهو مستخف بالكفر فى قلبه، ويوماً أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته(٣).

ولم يتخل المنافقون عن نفاقهم، وجاءت الشدائد لتزيد من كشف حقيقتهم، ولم يعدموا الحجج الواهية لتبرير الفرار والرجوع والانسحاب من المعركة، كما حدث يوم الأحزاب وحاق الخطر بالمدينة، واضطر المسلمون إلى حفر الخندق: ﴿**هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً** (١١) **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا** (١٢) **وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا** (١٣)﴾(٤).

وأخذ المنافقون يشيعون روح الهزيمة والخذلان في جيش المسلمين المحاصر:

١ – فأنكروا وعد الله ورسوله بالنصر حتى قال أحدهم: يعدنا محمد فتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً.

٢ – وأمروا الناس بالفرار من عسكر الرسول ﷺ (لا مقام لكم فارجعوا). وقيل: قالوا لهم: ارجعوا كفاراً وأسلموا محمداً، وإلا فليست يثرب لكم بمكان.

٣ – واعتذروا عن انسحابهم بأن بيوتهم (عورة)، أى معرضة للعدو ممكنة للسراق لأنها غير محرزة ولا محصنة، فاستأذنوه ليحصنوها ثم يرجعوا إليه، فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك، وإنما يريدون الفرار(٥).

* * *

وهناك ابتلاء يتعلق بأمور تعبدية كالذى نراه في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٨٣.
(٢) انظر البوطى: السابق ٢٦٠.
(٣) سيرة ابن هشام ٢/١٠٥.
(٤) سورة الأحزاب: [١١ – ١٣].
(٥) انظر الكشاف ٣/٢٥٤.

لِيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) ﴾(١).

قال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية فى عمرة الحديبية، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون ﴿ **لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ** ﴾، يعنى أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدى والرماح سراً وجهراً، ليظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره.... فمن اعتدى بعد هذا الإعلام والإنذار ﴿ **فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾، لمخالفته أمر الله وشرعه(٢).

وامتثل المسلمون لأمر الله واستطاعوا أن يغالبوا هذا الإغراء ويغلبوه، «وقد كان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وجه من قبل إلى آدم وحواء فلم يصمدا له، واستمعا لإغراء الشيطان بشجرة الخلد وملك لا يبلى، ثم ظل هو الاختبار الذى لابد أن تجتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله لها بأمانة الاستخلاف فى الأرض، إنما يختلف شكل الابتلاء، ولا يتغير فحواه»(٣).

وقد اجتاز المسلمون اختبار الإغراء بنجاح، بينما أخفق بنو إسرائيل فى ابتلاء مماثل حين خالف بعضهم أمر الله بالصيد في السبت فمسخهم الله قردة وخنازير: ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)** ﴾(٤)، ووصف الله سبحانه وتعالى هؤلاء بقوله: ﴿ **... مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ** ﴾(٥).

وقد بين الله سبحانه وتعالى مضمون هذا الاعتداء وسبب هذا المسخ في قوله: ﴿ **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)** ﴾(٦).

---

(١) سورة المائدة: [٩٤].
(٢) ابن كثير ٣/ ١١٧.
(٣) فى ظلال القرآن ٣/ ١٣٨٣.
(٤) سورة البقرة: [٦٥].
(٥) سورة المائدة: [٦٠].
(٦) سورة الأعراف: [١٦١].

سابعًا: الابتلاء وبنو إسرائيل

هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ولليهود حولها مستوطنات ذات قوة ومنعة، ووفرة في الزرع والمال والتجارة، «وكانوا يثمرون أموالهم بالربا، ويصنعون السلاح ويبيعونه للعرب الذين لا تنتهى حروبهم، وكانت أكثر الأراضي والبساتين بأيديهم»(١).

وكان بنو قينقاع يقيمون داخل المدينة، ويقيم بنو قريظة في فدك، وبنو النضير على مقربة منها، ويهود خيبر في شمالها(٢).

والثابت تاريخيًا أن اليهود ليس لهم أصالة جنسية أو مكانية فى هذه المنطقة، فهم يهود تعربوا، لا عربا تهودوا. يقول بودلي: «لقد كان اليهود منذ أزمان سحيقة عرضة دائمًا للطرد من وطنهم (فلسطين) الذى استولوا عليه أصلاً بالقوة، ولنذكر بعض الذين طردوهم. فهناك سرجون الثانى سنة ٧٢٢ ق.م، وبختنصر سنة ٥٨٦ ق.م. وبومباي سنة ٦٣ ق.م. وطيطس سنة ٧٠ م، وطردهم هارديان طردًا نهائيًا سنة ١٣٥م.. فكلما وقع اضطهاد لليهود رحل المضطهدون إلى ممالك أخرى، وقد تغلغل كثير منهم فى جزيرة العرب، فبعد أن نهب طيطس بيت المقدس استولت ثلاث قبائل قوية على المدينة أو يثرب كما كانت تسمى، تلك القبائل هي: بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير، وحولوها إلى معقل زراعى(٣).

وكان نجاح محمد ﷺ والمسلمين في الهجرة والاستقرار بالمدينة دافعًا إلى أن تكتب قريش إلى عبد الله بن أبى بن سلول ومن معه من المنافقين يحرضونهم على قتال محمد، وإلا فإن قريشًا ستزحف إليهم لتقاتلهم(٤). ولكن هذا الكتاب لم يأت بالثمرة المرجوة، فاتجهت قريش إلى اليهود لنفس الغرض وكتبوا إليهم «إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكن لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء»(٥).

ولكن النبي ﷺ أبدى حسن النية وحرصه على الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، واقتضى حرصه -ﷺ- على ترسيخ قواعد الدولة المركزية الجديدة إلى تنظيم العلاقات التى تربط بين الدولة الناشئة وبين الأنصار وقبائل اليهود المختلفة، وهو أول

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي: الكتاب الأول ٧٥.
(٢) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد ٢٣٦. (٣) ر.ف. بودلي: الرسول حياة محمد ١٤٨.
(٤) انظر قميحة: أدب الرسائل في صدر الإسلام ٥٠.
(٥) د. محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ٥٠. والخدم: جمع خدمة وهي الخلخال أو الساق.

كتاب تنظيمى كتبه النبى ﷺ بعد وصوله إلى المدينة[١]. وهو يحدد في تفصيل ودقة عجيبة الحقوق والواجبات التى تلتزم بها كل جماعة وقبيلة[٢].

ولكن اليهود لم يلتزموا على مدار السنوات العشر التى قضاها النبى ﷺ في المدينة بما نص عليه كتاب الموادعة، فعاشوا ينهجون نهج الغدر والخيانة والفساد والكذب والتآمر[٣].

ونزل فيهم من الآيات مئات أغلبها مدني، وقد تناول الحديث عنهم ما يزيد على ثلث سورة البقرة وحدها، وهى أول سورة نزلت بالمدينة، وهي كذلك أطول سور القرآن، إذ تبلغ آياتها ٢٨٧ (مائتان وسبع وثمانين آية).

والآيات فى مجموعها تذكر اليهود بفضل الله على آبائهم وأجدادهم وكيف نقضوا اليهود والمواثيق، وجحدوا نعم الله، وقتلوا الأنبياء، وعبدوا العجل، وحرفوا التوراة، واعتدوا فى السبت، وكيف غدروا بالنبى ﷺ وظاهروا عليه. وتصور وقائعه معهم وانتصاراته عليهم.. الخ.

ويعرض القرآن حياة بنى إسرائيل مجموعة من الابتلاءات: الابتلاءات بالنعم الموجبة للشكر، والابتلاءات بالنقم والكوارث والخطوب الموجبة للصبر.. ولكنهم في الحالين لا شكروا، ولا صبروا، بل عصوا وتنكروا وجحدوا، وحرفوا وتمحلوا، وهو شأنهم في كل عصر وحين.

ولقد فصل القرآن ذلك في سور وآيات مكية قبل هجرة الرسول ﷺ وقبل تعامله مع اليهود وتجاربه الشاقة معهم في المدينة، فيذكر الله يهود الحاضر[٤] بما وقع ليهود الماضى، وما وقع منهم، ويستحضر أمامهم آلاء الله عليهم وما أصابهم من نكبات وكروب. وكان ما نزل فيهم من الآيات المدنية أكثر وأطول وأشد تفصيلاً.

وهناك ملحظ يشدنا إليه وهو أن الله سبحانه وتعالى حينما يوجه الخطاب إلى بني إسرائيل –وهم يهود المدينة بلا خلاف – يتحدث إليهم كأنما هم أصحاب هذا الماضي الذى عاشه أجدادهم من منن ومحن –مع أنهم لم يشهدوا من ذلك شيئًا، ولم يعيشوا في البيئة التي وقعت فيها هذه الأحداث – وكأنما المقصود –والله أعلم– الإيحاء بأنهم امتداد طبيعي لهؤلاء الأجداد وتكرار خلقي ونفسي لما جبلوا عليه من عناد وجحود

---

(١) انظر نص الكتاب في السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٥٠١–٥٠٤، وحميد الله: مجموعة الوثائق السياسية.

(٢) انظر في تفصيل ذلك: قميحة: أدب الرسائل في صدر الإسلام ٦٠–٦٨.

(٣) في جرائم اليهود ارجع لكتاب النبأ العظيم للدكتور عبد الله دراز ١٥٥–١٥٦. والفصل الأول من «وسائل أعداء الإسلام في التضليل» للباحث.

(٤) أقصد بيهود الحاضر: الذين عاصروا النبي ﷺ.

ونكران وغدر. كما نرى في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) ﴾(٢).

والبلاء في الآيتين ذو وجهين، فهو يعني الاختبار بالنقم من تذبيح الأبناء واستبقاء آل فرعون لنسائهم من أجل الخدمة. والوجه الثاني أنه اختبار بالنعمة؟: نعمة الإنجاء من آل فرعون وظلمهم وعبورهم البحر.. ولكنهم قابلوا ذلك بالكفران والجحود، فكانت سقطتهم الكبرى بعبادة العجل(٣).

ومن عجب أن يسقط هؤلاء هذه السقطة وهم الذين ثبتوا مع موسى، وعبروا معه البحر فراراً بدينهم، ويعلل سيد قطب هذا التحول المنكود بأن الاستعباد الطويل والذل الطويل في ظل الفرعونية الوثنية كان قد أفسد طبيعة القوم وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف والصبر عليها والوفاء بالعهد والثبات عليه، وترك في كيانهم النفسي خلخلة واستعداداً للانقياد والتقليد المريح، فما يكاد موسى يتركهم في رعاية هارون، ويبعد عنهم قليلاً حتى تتخلخل عقيدتهم كلها، وتنهار أمام أول اختبار. ولم يكن بد من اختبارات متوالية وابتلاءات متكررة لإعادة بنائهم النفسي(٤).

* * *

ومن ابتلاءات المواقف التي تكشف عن حقيقة بني إسرائيل معارضتهم نبيهم شمويل في تنصيب طالوت ملكًا عليهم بأمر من الله لأنه ﴿ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾ فقال لهم نبيهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾(٥).

وبذلك قدم لهم المسوغات الحقيقية لتمليكه، وأولها اصطفاء الله له، ثم ما اتسم به من صفات شخصية كالعلم الفائق، وبسطة الجسم وقوته،. وحملت الملائكة إليهم التابوت مما يدل على تمليكه، فقبلوا الوضع الجديد مكرهين، وساروا معه لقتال جالوت ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾(٦).

ولما كان بنو إسرائيل من قبل كارهين لملك طالوت عليهم، ثم أذعنوا من بعد، وكان

---

(١) سورة الأعراف: [١٤١].
(٢) [البقرة: ٤٩]
(٣) راجع قصة العجل في الآيات ٨٧-٩٧ من سورة طه.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٦.
(٥) سورة البقرة: [٢٤٧].
(٦) سورة البقرة: [٢٤٩].

إذعان الجميع ورضاهم مما لا يمكن العلم به إلا بالاختبار والابتلاء أراد الله أن يبتلى هذا القائد جنده ليعلم المطيع والعاصي والراضى والساخط، فيختار المطيع الذي يرجى بلاؤه فى القتال وثباته فى معامع النزال، وينفي من يظهر عصيانه، ويخشى في الوغى خذلانه؛ فإن طاعة الجيش للقائد وثقته به من شروط الظفر..

أخبر طالوت جنوده بأنهم سيمرون على نهر يمتحنهم به بإذن الله: فمن شرب منه فلا يعد من أشياعه المتحدين معه في أمر القتال إلا أن يكون ما يشربه قليلاً وهو غرفة تؤخذ باليد، فإن هذا مما يتسامح فيه، ولا يراه مانعًا من الاتحاد به والاعتصام بحبله، ومن لم يطعمه أى يذقه بالمرة فإنه منه، وهو الذى يركن إليه ويوثق به تمام الثقة. فالابتلاء سيكون على ثلاث مراتب.

– مرتبة من يشرب فيروى لا يبالى بالأمر، وحكمه أن يتبرأ منه.

– مرتبة من يأخذ بيده غرفة يبل بها ريقه، وهو مقبول في الجملة.

– ومرتبة من لا يذوقه ألبتة، وهو الولى النصير الذى يوثق باتحاده، ويعول على جهاده[1].

(فشربوا منه إلا قليلا منهم) ذلك أن القوم كانوا قد فسد بأسهم، وتزلزل إيمانهم، واعتادوا العصيان فسهل عليهم عصيانهم، وشق عليهم مخالفة الشهوة وإن كان فيها هوانهم، ولم يبق فيهم من أهل الصدق في الإيمان والغيرة على الملة والأمة إلا نفر قليل.. فلما جاوز النهر طالوت هو والذين آمنوا معه قال الجنود الذين شربوا من النهر إلا قليلاً منهم: لا طاقة لنا بجالوت وجنوده[2].

وهنا برزت الفئة المؤمنة الفئة القليلة المختارة والفئة ذات الموازين الربانية ﴿**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[3].

إنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى، ولأنها تمثل القوة الغالبة، قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده محطم الجبارين، ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين وهم يكلون هذا النصر لله «بإذن الله»، ويعللونه بعلته الحقيقة «والله مع الصابرين»[4].

وكان اللقاء الحاسم بين القلة المؤقتة الصابرة والكثرة الكافرة المغرورة.. واتجهت قلوب الفئة المؤمنة إلى الله يدعونه بكل مشاعرهم أن يفيض عليهم الصبر فلا يأخذهم الضجر

---

(١) تفسير المنار ٢ / ٤٨٦–٤٨٧.

(٢) تفسير المنار السابق ٢ / ٤٨٧.

(٣) الظن هنا بمعنى العلم اليقيني [انظر: المفردات للراغب ٣٢٠].

(٤) في ظلال القرآن ١ / ٢٦٩.

والهلع، وأن يثبت منهم الأقدام فلا يفروا، وأن يحقق لهم النصر المؤزر المبين، فكانت الهزيمة النكراء لجيش الكفر والكذب والبهتان ﴿ **وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ** ﴾ وكان داود جنديا في جيش طالوت ﴿ **وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ** ﴾ (١).

(١) سورة البقرة: [٢٥١].

الفصل الثاني

من هدي السنة في الابتلاء

أولاً: الابتلاء في أحاديث قصصية

١- الابتلاء بالضراء

حدثنا هداب بن خالد حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك إنى قد كبرت فابعث إلى غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، فكان فى طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه فشكى ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل حبسنى أهلى، وإذا خشيت أهلك فقل حبسنى الساحر.

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب أى بنى أنت اليوم أفضل منى قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل على. وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء.

فسمع به جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتنى فقال: إنى لا أشفى أحدًا إنما يشفى الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك من رد عليك بصرك؟ قال: ربى قال: ولك رب غيرى؟ قال: ربى وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل، فقال: إنى لا أشفى أحدًا، إنما يشفى الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه.

فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله فدفعه

إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه فى قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك! فقال له الملك ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به، قال وما هو؟ قال تجمع الناس فى صعيد واحد وتصلبنى على جذع ثم خذ سهمًا من كنانتى، ثم ضع السهم فى كبد القوس ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمنى، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى.

فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهمًا من كنانته ثم وضع السهم فى كبد القوس ثم قال: باسم الله رب الغلام ثم رماه، فوقع السهم فى صدغه فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام. فأُتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود فى أفواه السكك، فخدت وأضرم النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه اصبرى فإنك على الحق[١].

* * *

وهذا الحديث القصصى -كما هو واضح- يذكر السبب المباشر الذى دفع الملك الكافر إلى شق الأخاديد، وإضرام النار، وإلقاء المؤمنين المتمسكين بدينهم فيها، وإن أشار الحديث إلى ما فعله الملك الضالع في الكفر من تعذيب وقتل لأفراد قبل ذلك أصروا على الإيمان، كما فعل بجليسه، وكما فعل بالراهب.

ونخلص من الحديث إلى عديد من الحقائق والقيم في مجال العقيدة والسلوك والخلق:

١- ففيه إثبات كرامات الأولياء.

٢- وفيه جواز الكذب في الحرب ونحوها، وفي إنقاذ النفس من الهلاك سواء نفسه أو نفس غيره ممن له حرمة[٢].

٣- وفيه حقيقة يقينية، وهي أن الله سبحانه وتعالى يستجيب لعباده المؤمنين مصداقًا لقوله: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾[٣]، فالله سبحانه وتعالى استجاب دعوة الغلام بقتل الدابة، واستجاب دعوتى الغلام بالقضاء على رجال الملك الذين أُمروا بإلقائه من ذروة الجبل، والذين أُمروا بإغراقه. والدعاء هو مخ العبادة، والله سبحانه

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٥ / ٨٥٠ والقرقور: السفينة الصغيرة، وقيل الكبيرة.

(٢) شرح النووي على مسلم ٥/٨٤٨.

(٣) سورة غافر [٦٠].

قد أمر عباده بدعائه، ووعدهم بالإجابة، ووعده الحق، وما يبدل القول لديه، ولا يخلف الميعاد(١).

٤- وفيه أن على المؤمن - خصوصًا إذا كان داعية - أن يُرجع الأمر كله إلى الله، وبخاصة ما منحه الله من مواهب وقدرات وعلم و غنى، وقد رأينا قول الغلام «إني لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله».

ولا كذلك منطق الجاحدين الذين يعتبرون أنفسهم وقدراتهم ومواهبهم هي مصدر الغنى والنعمة والسلطان من أمثال قارون الذي يقول: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي**﴾(٢). وكانت نتيجة هذا الجحود والغرور والاستعلاء الشيطاني أن خسف الله به وبداره الأرض﴿**فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ**(٨١)﴾(٣).

٥- وفيه أن على الداعية أن يهتبل كل فرصة للدعوة إلى الله وعقيدة الحق على بصيرة، ويتخذ من المواقف والمناسبات مجالاً لنشر دعوته ما يستطيع، فالمؤمن فطن.

٦- وفيه أن على المؤمن الداعية أن يحسن التدبير والتخطيط لنشر دعوته وتمكينها من النفوس وترسيخها فى القلوب، ولو كان في ذلك التضحية بالنفس والنفيس: فالغلام كان يستطيع أن يفر من وجه الملك، ويعيش في سلامة وأمان بعد أن نجا من محاولتين لقتله بطرحه من ذروة جبل، ثم بإغراقه في البحر، ولكنه آثر الرجوع إلى الملك، ورسم له خطة ترضي غروره، ولم يفطن الملك الكافر لهدف الغلام وهو نصر دعوته وإقناع الناس بالإيمان بها «تجمع الناس فى صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: «باسم الله رب الغلام»، ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني».

ولم يفطن الملك إلى الخدعة إلا بعد أن وقع ما كان يحذره، وعلى نطاق أوسع مما كان يظن حين قال الناس «آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام».

ولم يجد الملك أمامه إلا المنطق المنكود الغاشم، منطق القوة بالحرق والقتل وسفك الدماء للقضاء على دعوة الحق ودعاة الحق، ولكن منطق الحق انتصر، وسيظل منتصراً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

* * *

---

(١) انظر فتح القدير ٤/٦١٧.

(٢) سورة القصص: [٧٨].

(٣) سورة القصص: [٨١].

٢- الابتلاء بالسراء

(حديث أبرص وأعمى وأقرع فى بنى إسرائيل)

حدثنى أحمد بن إسحق حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا همام حدثنا إسحاق بن عبد الله قال حدثنى عبد الرحمن بن أبى عمرة أن أبا هريرة حدثه أنه سمع النبى ﷺ. يقول: إن ثلاثة فى بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكًا فأتى الأبرص فقال أى شىء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، قد قذرنى الناس، قال فمسحه فذهب عنه، فأعطى لونًا حسنًا، وجلداً حسنًا، فقال أى المال أحب إليك؟ قال الإبل، أو قال البقر، هو شك فى ذلك أن الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل، وقال الآخر البقر، فأعطى ناقة عشراء فقال يبارك لك فيها.

وأتى الأقرع فقال أى شىء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عنى هذا، قد قذرنى الناس، قال فمسحه فذهب، وأعطى شعرًا حسنًا، قال فأى المال أحب إليك؟ قال البقر، قال فأعطاه بقرة حاملاً، وقال يبارك لك فيها.

وأتى الأعمى فقال أى شىء أحب إليك؟ قال يرد الله إلى بصرى فأبصر به الناس، قال فمسحه فرد الله إليه بصره، قال فأى المال أحب إليك؟ قال الغنم، فأعطاه شاة والداً فأنتج هذان وولد هذا فكان لهذا واد من إبل، ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من الغنم.

ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين تقطعت بى الحبال فى سفرى، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ عليه فى سفرى فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاه الله، فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع فى صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا فرد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى فى صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل، وتقطعت بى الحبال فى سفرى فل بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى، فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصرى، وفقيراً فقد أغنانى، خذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشىء أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم فقد رضى الله عنك، وسخط على صاحبيك[1].

* * *

---

(١) البخاري: المجلد الثاني ٤/ ٢٠٨ - الحديث ٣٤٦٤ في فتح الباري: ٦/ ٥٧٨.

وفى الحديث السابق نرى عرضًا قصصيًا، يتجاوز به الرسول ﷺ مجرد الإخبار بما وقع، ويتجاوز به حدود التاريخ إلى ما هو أسمى وأجدى وهو التأثير والإيحاء، ولو كان الأمر أمر إخبار بوقائع أو مجرد التعريف بالحدث التاريخى في ذاته لكان بالإمكان أن ينقل ذلك الحدث بجهد أقل، وفي سطور معدودة[1].

وفى الحديث - كما يقول ابن حجر العسقلاني - جواز ذكر ما اتفق لمن مضى ليتعظ به من سمعه، ولا يكون ذلك غيبة فيهم، ولعل هذا هو السر في ترك تسميتهم..

وفيه التحذير من كفران النعم والترغيب في شكرها والاعتراف بها وحمد الله عليها.

وفيه فضل الصدقة، والحث على الرفق بالضعفاء وفيه الزجر عن البخل لأنه حمل صاحبه على الكذب، وعلى جحد نعمة الله تعالى[2].

وإغفال ذكر أسماء الشخصيات في هذه القصة وسابقتها وكثير من قصص القرآن الكريم والحديث الشريف ليس من قبيل تفادي الغيبة فيهم لأن ما ذكر حقيقة واقعة لا خيال وادعاء، ولكن نرى - والله أعلم - أن عدم ذكر الأسماء يرجع إلى أنها لا تضيف للمعروض القصصى شيئًا، لا من الناحية الفكرية الموضوعية ولا من الناحية الفنية، فالقصة ليست من «قصص الشخصية» ولكنها من «قصص المغزى»؛ أى التى ترمى إلى تحقيق غايات دينية وإنسانية وتربوية وأخلاقية وسلوكية في المقام الأول بطريقة فنية آسرة.

فالدروس والقيم التى تطرحها هذه القصة لم تسق بطريق مباشرة، وإن أشارت إلى محورها الأساسى ابتداء وانتهاء وهو الابتلاء:

- إن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم.. ثم تكون «لحظة التنوير» ختام القصة على لسان الملك الذى رد الله عليه بصره:

أمسك مالك فإنما ابتُليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك.

ولعل من أهم آليات قوة الإيحاء في هذه القصة اثنتين:

الأولى: الحوار الذى جاء في أسلوب ممتد هادئ وبعبارات عفويه بسيطة، فكل منهم يعرض أمنيته معللة بعلة واقعية وهى اشمئزاز الناس من منظر الأقرع والأبرص.. وحرص الأعمى على أن «يرى الناس»، والواقع يقول إن صاحب الآفة يعاني من الناس.. ومن نظرة الناس وقسوتهم عليه أكثر مما يعاني من ألم الآفة نفسها.

---

(١) محمد بن حسن الزير: القصص في الحديث النبوي ٢٥٧.

(٢) فتح الباري ٦ / ٥٨١.

أما الآلية الثانية فهى «أسلوب المفارقة» وهي هنا مفارقة في نطاق الشخصية الواحدة بين حالين متناقضين: حال المحنة التى كان يعيشها المبتلى بآفته والناس يقذرونه أى يشمئزون منه ولا يخالطونه، ولا يتحملون النظر إليه، وخصوصاً أن الآفة كان معها فقر مدقع شديد، وحال النعمة، حيث لا مرض ولا فقر ولكن جمالاً في الخلقة، ورغداً في العيش وغني مفرطا، ونعمة ممتدة.

والنوع الثاني من المفارقة هو المفارقة بين نموذجين من الشخصية.

- نموذج الجاحد الكذوب الكافر بأنعم الله، الضانّ على الفقراء ببعض ما أعطاه الله، وهذا النموذج يمثله الأبرص والأقرع.
- ونموذج المبتلى الشاكر الذى أنعم الله عليه، فأقر بنعمته، وشكر الله على ما أنعم، وما قبض يده عن سائل أو محروم.

وهذه المفارقة - مفارقة المواقف والأحوال في نطاق الشخصية الواحدة، والمفارقة في نطاق الشخصيات المتعددة - تزيد من إبراز الفروق بين المتناقضات، وتكسب الصورة قوة في الإيحاء، وتقنع المتلقي بعدالة الجزاء بعد أن اتضحت أمامه -بصورة فارقة قاطعة- كل الملامح والأبعاد.

ثانيا : عرض الابتلاء إجابة على سؤال

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال :

شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد ببُرْد له في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟

فجلس محمرا وجهه فقال :

« قد كان من كان قبلكم يُؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، ثم يجاء بالمنشار فيوضع فوق رأسه، ما يصْرِفه عن دينه، أو يمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب، ما يصرفه عن دينه. وليتمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تعجلون »(١).

* * *

إن فئة من المسلمين ممن تعرضوا لتعذيب الكفار وإهاناتهم يقصدون رسول الله ﷺ وقد ضاقت بهم الحال، ولا عجب أن يقصدوا رسول الله ﷺ إذا ما حزب الأمر واشتد الكرب والظلم والعدوان الواقع عليهم لكي يدعو ربه أن يكسر الكفار وينتقم لهم ممن ظلموهم، ولكن النبي ﷺ لم يفعل.

قال ابن بطال في تعليل ذلك : « إنما لم يجب النبي ﷺ سؤال خباب ومن معه بالدعاء على الكفار مع قوله تعالى « ادعوني أستجب لكم »، وقوله « فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا » لأنه علم أنه قد سبق القدر بما جرى عليهم من البلوى ليؤجروا عليها كما جرت به عادة الله تعالى في من اتبع الأنبياء فصبروا على الشدة في ذات الله، ثم كانت لهم العاقبة بالنصر وجزيل الأجر، قال فأما غير الأنبياء فواجب عليهم الدعاء عند

---

(١) أخرجه البخاري فى كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: حديث ٣٦١٢ - ٦/ ٧١٦. وكتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، حديث ٣٨٥٢ - ٧/ ٢٠٢. وكتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، حديث ٦٩٤٣ - ١٢/ ٣٣٠ (فتح البارى).
وأحمد في مسنده بإسناد صحيح حديث ٢٠٩٥٦ - ١٥/ ٣٩١.
وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب الأسير يكره على الكفر، حديث ٢٦٤٩ - ٣/ ٤٧.
والحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، حديث ٥٦٤٣ - ٣/ ٤٣٢. وقال حديث حسن الإسناد. ووافقه الذهبي في التلخيص.
هذا ويحتمل أن يريد النبي ﷺ صنعاء اليمن وبينها وبين حضرموت مسيرة خمسة أيام. ويحتمل أن يريد صنعاء الشام والمسافة بينهما أبعد بكثير. فتح الباري ٦/ ٧١٦

كل نازلة لأنهم لم يطلعوا على ما اطلع عليه النبى ﷺ ...»[1].

وليس فى الحديث بأنه ﷺ لم يدع لهم، بل يحتمل أنه دعا، وإنما قال «قد كان من قبلكم يؤخذ...» تسلية لهم وإشارة إلى الصبر حتى تنتهى المدة المقدورة، وإلى ذلك الإشارة بقوله في آخر الحديث «ولكنكم تستعجلون»[2].

والحديث يشدنا إلى عدة معان وإيحاءات غير ما سبق.

١ – فجلوس الرسول ﷺ واحمرار وجهه بعد أن كان متوسدا يدلنا على شدة اهتمامه بأمر المسلمين ومشاركتهم همهم.

٢ – ونرى الرسول ﷺ لم يجب على السؤال الذى طرحه خباب ومن معه من الصحابة رضى الله عنهم، ولكنه انتقل بهم نقلة أخرى إلى ماضى المؤمنين المبتلين الثابتين الصابرين، فالقضية أكبر بكثير من إيذاء عابر ودعاء على الظالم المؤذي، إنما هى سنة ربانية أزلية: سنة ابتلاء المؤمنين على مدار التاريخ والصراع بين الحق والباطل والخير والشر. وهى سنة يجب أن يعيها ويستوعبها من يأخذ نفسه بدعوة الحق، وقد قدم رسول الله ﷺ للفئة الشاكية من الصحابة صورة من صور البلاء الذي كان ينزل بالمؤمنين في العصور السابقة وكيف ثبتوا على الحق، وصبروا ولقوا مصارعهم في الله بصورة وحشية بشعة.

٣ – ولكن الرسول ﷺ يفتح قلوب المؤمنين للأمل، فالمؤمن لا يعرف اليأس. ﴿ **وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴿٨٧﴾ ﴾[3]. والحقيقة التي يجب أن يعيها المؤمنون هي أن النصر لدين الله في النهاية، وأن ما يصيب المؤمنين من الابتلاء إنما هو ضريبة الإيمان ﴿ .. **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴿١٤٠﴾ **وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** ﴿١٤١﴾ ﴾[4].

وفي هذا التمحيص الذى يتولاه الله – سبحانه – بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير: محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية.... ﴿ **وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** ﴾، تحقيقا لسنته في دمغ الباطل بالحق متى استعلن الحق وخلص من الشوائب بالتمحيص.

٤ – وثمة توجيه يستخلص من قول الرسول ﷺ فى آخر الحديث «ولكنكم تعجلون»، وهو أن على المؤمنين وأصحاب الدعوات ألا يستعجلوا الثمرة بل عليهم

---

(١) فتح البارى: ٦ / ٥٨١.

(٢) السابق، نفس الصفحة.

(٣) سورة يوسف: [٨٧].

(٤) سورة آل عمران: [١٤٠، ١٤١].

أن يبذلوا في سبيل عقيدتهم أقصى ما يملكون من طاقات، ويقدموا من التضحيات ما يتطلبه الانتصار للحق حتى يكون للثمرة طعم وقيمة بعد طول المعاناة، وبالتجربة والمعاناة تنضج شخصية المسلم ويقوى نسيجها، ويكون جديرا بالنصر. وفي كل الأحوال يكون المؤمن ظافرا مادام ملتزما حدود الله، سالكا درب الحق والجهاد فى المنشط والمكره؛ مصداقا لقول رسول الله ﷺ روايةً عن صهيب بن سنان: «عجبا لأمر المؤمن إنَّ أمرَه كلَّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرا له»[1].

* * *

ومن الأحاديث التى جاءت إجابة على سؤال، ما رواه مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه:

«قلتُ يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاءُ بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة»[2].

وتوجه المسلمين إلى الرسول ﷺ بهذا السؤال له دلالتان:

الدلالة الأولى: أنهم ذاقوا البلاء في سبيل إسلامهم: تعذيبا وفقرا وحرمانا وإهانة، ومنهم من لاقى ربه شهيداً وهو يعذب مثل ياسر بن عامر وزوجته سمية بنت خياط[3].

والدلالة الثانية: كسب اليقين أو زيادته وتثبيته، وذلك بمعرفة مدى ارتباط البلاء بصدق الإيمان ومكان الدين في قلب المؤمن، وجزاء الصبر على البلاء.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد – أحاديث متفرقة (٦١) – ٥/٨٤٤.
وأحمد في مسنده بإسناد صحيح. حديث ١٨٨٣٦، ١٨٨٤١ – ١٤/٣٢٣، ٣٢٥٢.
والدارمي في سننه: كتاب الرقاق (٢٠) – باب المؤمن يؤجر في كل شيء (٦١) حديث ٢٦٧٥ – ٢/٧٧٤.

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح. حديث ١٤٨١ – ٢/٢٢٧.
والترمذي في كتاب الزهد (٣٧) – باب ما جاء في الصبر على البلاء (٥٦) حديث ٢٣٩٨ – ٤/٦٠١. وقال حسن صحيح.
وابن ماجه في كتاب الفتن (٣٦). باب الصبر على البلاء (٢٣) – حديث ٤٠٢٣ – ٣/٤٢٧.
والدارمي في كتاب الرقاق (٢٠) باب أشد الناس بلاء (٦٧) حديث ٢٦٨١ – ٢/٧٧٦.
والحاكم في المستدرك وصححه. كتاب معرفة الصحابة (٣١) حديث ٥٤٦٣ – ٣/٣٨٦.

(٣) قدم ياسر العنسي من اليمن إلى مكة فحالف أبا حذيفة بن المغيرة، فزوجه أمة له يقال لها سمية فولدت له عمارا، فأعتقه أبو حذيفة، وكانت هذه الأسرة من أسبق الناس إلى الإسلام، فأنزل بهم الكفار تعذيبا رهيبا حتى مات ياسر من التعذيب، وقتل أبو جهل سمية بطعنة من رمحه. وكان النبي ﷺ يمر بهم ويقول: صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة. وقتل عمار في موقعة صفين وهو يحارب في صف على بن أبى طالب [الإصابة ٣/٦٤٧].

فالحديث يجزم بأن العلاقة بين الإيمان والابتلاء علاقة طردية، فبقدر الإيمان يكون البلاء؛ لذا كان الأنبياء - وهم دعاة الحق والهدى - أكثر الناس تعرضا للبلاء وعدوان المعتدين ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا (١١٢)** ﴾[1]، ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ (٣١)** ﴾[2].

ولا عجب أن يكون الأنبياء هم أشد الناس بلاء وأكثرهم صبرا وتحملا للشدائد والمحن لأنهم القدوة والأسوة وإلا ما بقي أحد ثابتا على إيمان، ولا متحليا بصبر. وكذلك كان الصفوة من الرعيل الأول من المسلمين يقبلون على الله، ويرغبون إليه في السراء والضراء سواء، مع أن «حال الشدة والبلوى تكون مقبلة بالعبد إلى الله عز وجل، وحال العافية والنعماء صارفة للعبد عن الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ (١٢)** ﴾[3].

ولأجل هذا تقللوا في المآكل والمشارب والملابس والمناكح والمجالس والمساكن والمراكب وغير ذلك ليكونوا على حال توجب لهم الرجوع إلى الله تعالى عز وجل والإقبال عليه[4].

---

(١) سورة الأنعام: [١١٢].

(٢) سورة الفرقان: [٣١].

(٣) سورة يونس: [١٢].

(٤) العز بن عبدالسلام: الفتن والبلايا والمحن والرزايا ٢١.

ثالثاً: البلاء بين المؤمن والمنافق

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنِ كمثل الخامة[1] من الزرع: من حيث أتتها الريحُ كفأتْها، فإذا اعتدلَتْ تكفَّأُ بالبلاء. والفاجر كالأَرْزَة صماءَ معتدلةً حتى يقْصِمها الله إذا شاء»[2].

والحديث موازنة موجزة ولكنها وافية بين نقيضين: شخصية المؤمن، وشخصية المنافق أو الكافر الذى عبر الحديث عنها بالفاجر، وكلاهما - الكافر والمنافق - ينهل من منبع واحد وهو رفض الحق والهدى واتباع الضلال ومعاداة دين الله: الكافر بوجه متبجح صريح، والمنافق يستتر وراء مظهر من الرياء والادعاء والكذب.

فالمؤمن معرض دائما لريح البلاء بمرض أو فقر أو إيذاء من الكفار، وهو يكيف حياته وواقعه تبعا لما يلقى حتى يصبح البلاء في حياته من الأمور العادية التى لا ينهزم أمامها؛ لأنه يعلم أن أمره كله خير، وأنه ظافر على كل حال بالصبر على ما يتبلى به في حالة الضراء... وشكر الله على ما أنعم به عليه في حالة السراء، كما أن طول المعاناة يكسبه قدرة على الصمود والتكيف - بالنفس المهيأة دائما - مع كل واقع يعيشه وكل نازلة تحل به.

أما الفاجر - كافرا كان أو منافقا - فهو جامد أصم متبلد الفكر متحجر القلب والضمير، لا يأخذ مما يصيبه - سراء أو ضراء - دروسا وعبرا، بل ينكر فضل الله عليه، ويعتقد أنه لا غالب له، وينسى أن بطش الله شديد، وهو القائل: ﴿**يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (16)**﴾[3]، وتحقق ذلك فى بدر وقصم الله عتاتهم وطواغيتهم من أمثال أبي جهل وأمية بن خلف. وهذا ما حدث لفرعون وقومه: ﴿**كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (42)**﴾[4].

ومن البلاغة النبوية استخدام (القصْم) مع الأرزة بعد وصفها بأنها (صماء معتدلة)، والقصم منصرف كذلك للمشبه وهو الفاجر كافرا كان أو منافقا. والقصم لغة هو دق الشيء أو كسر الشيء الشديد حتى يبين، أى كسره كسرا فيه بينونة.

(1) الخامة: الزرع أول ما ينبت على ساق واحدة. والأرز شجر معتدل صلب لا تحركه الريح (فتح البارى ١٠/١١١).

(2) أخرجه البخارى في أول كتاب المرضى (٧٥) حديث ٥٦٤٤ فتح البارى ١٠/١٠٧.

ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ٥/٦٥٣.

وأحمد بإسناد صحيح بألفاظ مقاربة حديث ٧٨٠١ - ٧/٤٩١، ٧١٩٢ - ٧/٣٩.

والدارمي عن كعب بن مالك: كتاب الرقاق (٢٠) باب: مثل المؤمن كمثل الزرع [٣٦] حديث ٢٦٤٧ - ٢/٧٦٥.

(3) سورة الدخان: [١٦].

(4) سورة القمر: [٤٢].

ورجل قَصِم: أي سريع الانقصام هياب ضعيف[1]. ومن المجاز: نزلت بهم قاصمة الظهر. قال الشاعر:

كأنْ لم يلاقِ المرءُ عيشاً بنعمةٍ
إذا نزلتْ بالمرءِ قاصمةُ الظهرِ[2]

(١) لسان العرب ٥/٣٦٥٦.

(٢) أساس البلاغة ٣٦٩.

الفصل الثالث

من صور الابتلاء فى الأمم الغابرة

كما عرضها القرآن الكريم

عرض القرآن الكريم صورا من واقع الحياة الغابرة لابتلاء الله لبعض الخلق فرادى وجماعات لمعرفة مكانهم من الإيمان ومكان الإيمان منهم، وتمييز الصادقين من الكاذبين، والصابرين من القانطين المفزوعين، والشاكرين من الجاحدين. والقرآن فى عرضه لهذه الصور يربطها بالواقع الذى يعيشه الناس أيام نزوله، ويمتد التأثير ولا شك إلى الأجيال التالية من الناحية الزمانية وإلى شتى أرجاء الأرض من الناحية المكانية، بوصف القرآن دستور الحياة لكل زمان ومكان، وبوصف الإسلام هو الرسالة الخاتمة، وبوصف النبى ﷺ هو خاتم الرسل والنبيين، وقد بعث للخلق كافة عربهم وعجمهم وإنسهم وجنهم.

وجاءت صور الابتلاء فى القرآن الكريم على ثلاثة أضرب هى: الابتلاء بالسراء، والابتلاء بالضراء، والابتلاء بالآيات، وهو أكثر ارتباطا بالابتلاء بالضراء. وهذا ما نعرضه فى الصفحات التالية.

أولاً: الابتلاء بالسراء

الله سبحانه وتعالى هو الرزاق وهو مقدر الأرزاق وقاسمها ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾(١). وقد أنعم الله على عباده بنعم لا تحصى ولا تعد ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾(٢).

ومن أظهر نعم الله على عباده المال والأولاد. يقول تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾(٣).

ويقول تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾(٤).

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) ﴾(٥).

وهذه النعم – أيا كان نوعها – توجب على المخلوق شكر الله عليها بلسان المقال، وشكره عليها بلسان الحال؛ بأداء ما أمر الله به تجاهها. ولكن الواقع على مدار التاريخ نجده في قوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾(٦).

وفي تعليل ذلك يقول أبو حامد الغزالي: «اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة، فإنهم متعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله، الشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وهي طاعة الله عز وجل، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان»(٧).

ونحاول فيما يأتي أن نقدم ثلاث صور للابتلاء بالسراء في القرآن الكريم وما تعكسه من دلالات ودروس وعبر.

١ – أصحاب الجنة.

٢ – صاحب الجنتين.

٣ – قارون.

---

(١) سورة الذاريات: [٢٢].
(٢) سورة النحل: [١٨].
(٣) سورة الكهف: [٤٦].
(٤) سورة الأنفال: [٢٨].
(٥) سورة التغابن: [١٥].
(٦) سورة سبأ: [١٣].
(٧) إحياء علوم الدين م٣ – ١٢ / ٢٢٧٥.

١ - أصحاب الجنة

عرضت سورة القلم قصة أصحاب الجنة فى الآيات من ١٧ إلى ٣٣. وهى السورة الثانية نزولا بعد سورة العلق[١]: يقول تعالى: ﴿ **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣)** ﴾[٢].

* * *

والآيات تصور وقائع هذه القصة فى دقة ووضوح. وقد ذكر بعض السلف أن أصحاب هذه الجنة كانوا من أهل اليمن. قال سعيد بن جبير كانوا من قرية يقال لها ضروان على ستة أميال من صنعاء، وقيل كانوا من أهل الحبشة وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة وكانوا من أهل الكتاب. وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ويدخر لعياله قوت سنتهم ويتصدق بالفضل. فلما مات وورثه بنوه قالوا لقد كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه شيئا للفقراء، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية: رأس المال والربح والصدقة، فلم يبق لهم شيء[٣].

وبصرف النظر عن مكان الواقعة وجنسية أشخاصها فإن ذلك لن يغير من الواقع وانعكاساته ودلالاته شيئا، فهناك شخصية غائبة طيبة كريمة صالحة هى شخصية الأب

---

(١) يرى سيد قطب أن سياق السورة وموضوعها وأسلوبها يرجح غير ذلك، حتى ليكاد يتعين أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة التى جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية، فى الوقت الذى أخذت فيه قريش تدفع هذه الدعوة وتحاربها، فتقول عن رسول الله ﷺ تلك القولة الفاجرة، وأخذ القرآن يردها وينفيها، ويهدد المناهضين للدعوة ذلك التهديد الوارد فى السورة. [فى ظلال القرآن ٦ / ٣٦٥٠]. ويروى عن ابن عباس وقتادة أن السورة من أولها إلى ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ (١-١٦) مكية. ومن بعد ذلك إلى: ﴿ **فاجتباه ربه فجعله من الصالحين** ﴾ (١٧-٥٠) مدنية. وباقيها مكى [فتح القدير ٥ / ٣٣٠].

(٢) سورة القلم: [١٧ - ٣٣].

(٣) تفسير ابن كثير ٨/١٠٦.

المورث الذى تعود أن يطعم المساكين والمحتاجين من خراجها. وهذا ما يشى به الحوار بين الأبناء الورثة الذين آلت إليهم ملكية هذه الجنة، فدفعهم الحرص والجشع إلى مخالفة ما كان متبعا من قبل.

لقد حل موعد الحصاد أو جنى الثمار، وأقسم الإخوة ألا يجنوا ثمارها إلا فى الصباح الباكر قبل أن يشعر المساكين والمحتاجون بذلك فيأخذوا شيئا من ثمارها على سبيل الصدقة كما تعودوا من قبل، ولم يستثنوا فى حلفهم؛ أى لم يقولوا «إلا أن يشاء الله» فأرسل الله على الجنة ناراً أكلت ثمارها، حتى غدت كالليل المظلم الأسود الشديد السواد، وذلك من شدة النار التى أرسلت عليها. كل ذلك وأصحاب الجنة لما يعلموا به.

وفى الصباح الباكر نادى بعضهم بعضا وانطلقوا إلى جنتهم وهو يتحدثون ويتشاورون بصوت خافت حتى لا يشعر بهم المساكين وذوو الحاجة، وكانوا واثقين من قدرتهم على تنفيذ ما عقد عليه العزم بليلهم.

فلما بلغواا جنتهم ورأوا ما هي عليه من صورة بشعة وقد جلل السواد ما تبقى منها من أثر الحريق الذى طاف بها اعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق إليها، ولكنهم بعد قليل اكتشفوا الحقيقة المرة، وأن غضب الله قد حل بهم فحرمهم ثمار جنتهم.. بل أصول جنتهم فلم تعد تصلح للإثمار مرة أخرى، وهنا وبخهم أوسطهم الذى كان على نهج إيمانى بخلاف بقية إخوته، وذكرهم بنصح لم يأخذوا به أنفسهم ﴿ **ألم أقل لكم لولا تسبحون** ﴾، أى هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ﴿ **قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين** ﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع[1]، وأخذ يلوم بعضهم بعضا ويعترفون بظلمهم وبغيهم.. ويبدون الندم على ما فرط منهم، ولات حين مندم.

* * *

وفى الآيات دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان، لأنهم عزموا على أن يفعلوا، فعوقبوا قبل فعلهم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)** ﴾[2]. وفى الصحيح عن النبى ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار» قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصا على قتل صاحبه»[3].

والواقع أن عزم هؤلاء الإخوة لم يكن مجرد نية عابرة ولكنه كان عزمًا أكيداً فى

(١) ابن كثير ٨/١٠٦.
(٢) سورة الحج: [٢٥].
(٣) القرطبى: ٨/٦٧٢٠.

اصرار عنيد لا يقبل التراجع. فهو « خطيئة نفسية » تكاد ترقى إلى مرتبة الفعل.

كما أن هذا العزم قد بدئ فى تحقيقه فعلا باتخاذ « الأعمال التحضيرية » التى توصل إلى الخطيئة المنشودة، وهى حرمان المساكين من صدقة هذه الثمار. وتتمثل هذه الأعمال التحضيرية: القسم والاتفاق بليل، والتجمع فى الصبحة الباكرة والتخافت فى الحديث والسير إلى الجنة دون إشعار الآخرين. ولكن الله ضرب إرادتهم بإرادته وأفسد مخططهم بعد أن بدءوا بتنفيذه، وحرق جنتهم حتى أصبحت كالصريم.

إنها صورة من صور الابتلاء بالنعيم... وهذا النعيم من الله سبحانه وتعالى - كما أشرنا من قبل - يستوجب شكر الله قولا... وشكر الله عملا... بإخراج ما تعلق بالمال من حقوق الفقراء والمساكين.

ونلمح فى تذييل القصة ابتلاء بالضراء كذلك، وإن لم يستغرق الموقف حيزا واسعا، والضراء تتمثل فى حرق الجنة، وقد وفق هؤلاء الإخوة فى مواجهة هذا الابتلاء، ويتمثل هذا التوفيق فى الاعتراف بالخطأ والعصيان والظلم والعدوان والشعور الحاد بالندم، والتوبة إلى الله والرغبة إليه ﴿ **قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلتنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون** ﴾.

* * *

والله سبحانه وتعالى يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئة، ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط بين سنته فى الغابرين وسنته فى الحاضرين ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم، وفى الوقت ذاته يُشعر المؤمنين بأن ما يرونه على المشركين - من كبراء قريش - من أثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله، له عواقبه، وله نتائجه. وسنته أن يبتلى بالنعمة كما يبتلى بالبأساء سواء، فأما المتبطرون المانعون للخير المخدوعون بما هم فيه من نعيم، فذلك كان مثلا لعاقبتهم ﴿ **ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** ﴾، وأما المتقون الحذرون فلهم عند ربهم جنات النعيم(١).

* * *

والربط بين سنة الله فى الغابرين وسنته فى الحاضرين واضح من أول آية فى هذه القصة: ﴿ **إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة** ﴾ أى امتحنا كفار مكة بالمال والولد والجاه والسيادة فلم يشكروا نعم الله عليهم بل كفروا بها بتكذيبهم رسولنا وإنكارهم توحيدنا، فأصبناهم بالقحط والقتل لعلهم يتوبون كما امتحنا أصحاب الجنة فتابوا، وعادوا إلى طاعة الله(٢).

---

(١) فى ظلال القرآن ٦ / ٣٦٦٦.

(١) انظر: أيسر التفاسير لأبى بكر الجزائرى ٥ / ٤١٠-٤١١.

٢- صاحب الجنتين

صورة أخرى من صورة الابتلاء بالسراء عرضتها آيات من سورة الكهف (الآيات من ٣٢ إلى ٤٤).

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) ﴾.

اختلف المفسرون في الرجلين اللذين ضرب بهما المثل: هل هما مقدران أم محققان؟ فقال بالأول بعض المفسرين، وقال بالآخر بعض آخر، واختلفوا في تعيينهما، فقيل هما أخوان من بنى إسرائيل، وقيل هما أخوان مخزوميان من أهل مكة: أحدهما مؤمن والآخر كافر، وقيل هما المذكوران فى سورة الصافات في قوله: قال قائل منهم: ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) ﴾(١).

وهو خلاف لا يترتب عليه أية نتيجة تنال من الهدف الذى توخاه ضرب المثل، وهو توجيه الناس إلى الإيمان، والانتفاع بما يعكسه المثل من دروس وعظات؛ كما نرى في قوله تعالي: ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾(٣)

* * *

(١) سورة الصافات: [٥١] - فتح القدير ٣/ ٣٥٥.

(٢) سورة إبراهيم: [٢٥].

(٣) سورة الحشر: [٢١].

فسواء أكانت الشخصيتان المحوريتان في هذه القصة موجودتين حقيقة أم موجودتين تقديرا، فالذي لا يستطيع أحد إنكاره أنهما نموذجان متناقضان موجودان في كل أمة على مدار التاريخ، فهما انعكاس مجسد للإيمان والكفر.. الإيمان بما فيه من طوابع القناعة والرضى والتسليم لله، والكفر بما فيه من كبر وجشع وجحود وتنكر:

الرجل الأول وسع الله رزقه فهو صاحب جنتين متكاملتين من أعناب ونخيل وزرع، وهما مثمرتان تدران من الثمار الكثير والكثير بلا انقطاع، إذ إن ريهما مضمون بنهر جار بينهما دون اعتماد على ماء المطر الذي لا يعرف له حساب ولا انضباط.

وهذه النعمة الوافرة الوافية كانت توجب على صاحبها الإيمان بالله وشكره، ولكن أخذه الكبر والبطر والجحود والتباهي على خلق الله.. وتدفعه هذه القيم الوضيعة الخسيسة إلى التحدث بمنطق الكافرين وهو يحاور صاحبه المؤمن..

- فيقول له: أنا بجنتي هذه أغنى منك وأوسع ثراء وأعز عشيرة ورهطًا.

- وهو ينكر القيامة والبعث والحساب.

وبناء على هذا الإنكار يرى أن جنته لن تعرف الفناء.

- وحتى على فرض قيام الساعة فإن الله - نظراً لمجده العريض وقوته وثرائه فى الدنيا - سيرزقه فى الآخرة ما هو خير وأجمل من جنة الدنيا.

إنه منطق الكفر والكبر والغرور الذى تصدى له الرجل المؤمن في قوة ويقين:

- فيوبخه توبيخًا شديداً بهذا الاستفهام الاستنكارى القارع الصاخ، مذكرًا إياه بأصله الأول آدم الذى خلقه الله من تراب ويذكره بخلقه هو «من نطفة ثم سواك رجلاً»؟

- وخشية أن يظن صاحبه به شيئًا من الميل إلى الدنيا والانبهار بما رأى من زينتها المتمثلة في الجنتين، يعلن إيمانه القوي بالله وتوحيده إياه بلا ند أو شريك.

- ويذكره بأن الأمر كله لله، فما شاء الله كان، ولا قوة إلا بالله، فالعبد لا يستطيع أن يفعل شيئًا أو يتركه إلا بتمكين الله وإقداره وإعانته.

- وإيمانًا بهذه القدرة الربانية تتغير الأحوال وتتبدل:

فليس على الله بمستكثر أن يرزق هذا المؤمن الأقل «مالا وولدا» جنة خيراً وأبقى من جنة هذا الكافر الجاحد.

وليس بمعجز لله أن يفني هذه الجنة بصواعق من السماء «فتصبح صعيدا زلقا»؛ أى ترابا أملس لا ينبت ولا تثبت عليه قدم، أو يفنيها بحرمانها من السقيا بجعل ماء النهر غائرا في أعماق الأرض، فلا يستطيع صاحب الجنتين رفعه لريهما.

ونزل أمر الله فأحيط بثمره، أى أهلك فلم يبق منه شيء، وأصبحت الجنة «خاوية على عروشها» أى ساقطة على أعمدة الكرم التى كان يحمله عليها، وساقط من مبانيها ما كان عاليًا على ما كان خفيضًا.

ويأخذه الحزن والحسرة على ما أنفقه فيها من أموال ويثوب إلى عقله ويقول «يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً».

وأمام قدرة الله تبطل كل قوة، فلم يجد من ينصره فى محنته، وهو الذى يتباهى على المؤمن بأنه «أعز نفراً»، وتبطل قوته الذاتية، فلم ينتصر بنفسه، وعجز وعجزت عشيرته ومعاونوه أن يمنعوا قدر الله بعقابه على ما كفر وجحد وتكبر.

* * *

ومرة ثانية نعيش ملمحًا من ملامح القص القرآني وهو ربط الغابر بالحاضر الذى كانت تعيشه قريش، فيروى أن أشراف قريش وكبراءها اجتمعوا وقالوا لرسول الله ﷺ: إن أردت أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء من عندك فإذا حضرنا لم يحضروا، أو تعين لهم وقتا يجتمعون فيه عندك فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ** (٥٢) ﴾ (١)، فبين فى هذه الآية أنه لا يجوز طردهم، بل تجالسهم وتوافقهم وتعظم شأنهم، ولا تلتفت إلى أقوال أولئك الكفار ولا تقم لهم في نظرك وزنا سواء غابوا أو حضروا(٢).

ويظهر أن محاولة الكفار قد تكررت بعد ذلك فقد جاء قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله ﷺ وقالوا: نح هؤلاء الموالي الذين كان ريحهم ريح الضأن، وهم صهيب وعمار وخباب وغيرهم من فقراء المسلمين حتى نجالسك، فنزل قوله تعالى: ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** (٢٨) ﴾ (٣).

ثم يجيء ضرب المثل (واضرب لهم مثلاً رجلين..) مرتبطًا معنويًا ونفسيًا بقوله تعالى: ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ** ﴾.

فموقف كبراء قريش من النبى ﷺ وفقراء المسلمين تكرار أو صورة أخرى من موقف صاحب الجنتين المبتلى بالنعمة من المؤمن الفقير.. بجامع الكفر والجحود والغرور والكبر، وبجامع نزول العقاب في الدنيا والآخرة. فالقصة - كما يقول صاحب

(١) سورة الأنعام: [٥٢].   (٢) تفسير الفخر الرازي ٥/ ٤٨١.

(٣) سورة الكهف: [٢٨ - ٢٩] - انظر القرطبى ٥/ ٤٠٠٧، والكشاف ٢/ ٤٨١.

الظلال- «تضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة والنفس المعتزة بالله، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى فلن تخذله القوة ولا الجاه. وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه الذاكر لربه يرى النعمة دليلاً على المنعم موجبة لحمده وذكره لا لجحوده وكفره»(١).

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٢٧٠.

٣ - قارون

وفتنة المال والعلم

في المثالين السابقين رأينا صورتين للابتلاء بالمال دون أن يحدد القرآن أسماء «المفتونين»؛ يستوي في ذلك الإخوة أصحاب الجنة، ومالك الجنتين الذي صرح بكفره وجحوده وبطره ورفض توجيه صاحبه المؤمن الفقير، ﴿ **فأحيط بثمره** ﴾ ولم ينفعه ندمه.

ونقف أمام مثال آخر أصرح وأصرخ من المثالين السابقين، شخصية تاريخية حدد القرآن اسمها.. إنه قارون صاحب الكنوز الكثيرة الضخمة، وقد عرضت سورة القصص قصته في الآيات التالية:

﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)** ﴾[١].

وفي سورة غافر ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)** ﴾[٢].

* * *

كان قارون إسرائيلياً من قوم موسى، وقيل هو ابن عمه، وقيل بل كان عما لموسى، وقيل كان ابن خالته[٣]. وهو خلاف لا يترتب عليه أي أثر، فالحقيقة المجمع عليها أنه

---

(١) سورة القصص: [٧٦-٨٣]. (٢) سورة غافر: [٢٣-٢٤].

(٣) الكشاف ٣/ ١٩٠. وابن كثير ٦/ ١٦٢. والقرطبي ٦/ ٥٠٢٦.

كان إسرائيليا، وأنه كان بينه وبين موسى قرابة ظاهرة.

وثمة حقائق أخرى يجمع عليها المفسرون بالنظر إلى ملامحه الشخصية والخلقية والنفسية، ومنها:

١ – أنه كان حسن الصورة إلى أبعد حد حتى إنه كان يلقب بالمنوّر.

٢ – أنه كان غنياً غنى فاحشا فكان له من الكنوز والأموال ما لا يحصى ولا يعد.

٣ – أنه كان أقرأ بنى إسرائيل للتوراة، وأعلمهم بها.

٤ – أنه لم يكن سليم العقيدة نقي السريرة، فنافق كما نافق السامري.

٥ – أنه كان باغيا ظالما لبني إسرائيل قومه، ويقال إن فرعون أسند إليه إمارة على بني إسرائيل فظلمهم ظلماً فاحشا واستخف بهم لكثرة ماله وولده، وخرج عن طاعة موسى، وكفر بالله، ونسب ما آتاه الله من المال إلى نفسه لعلمه وحيلته[١].

٦ – أنه كان متكبراً بطرا جاحدا بأنعم الله عليه ويرى أن ما عنده من كنوز الأرض يرجع إلى قدراته ومواهبه لا إلى تقدير الله وقدرته فهو الذى ﴿ **يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾.

٧ – أنه كان عنيداً لا يصغى لنصح الناصحين العقلاء بل يتشبث برأيه على خطئه وخطله.

٨ – أنه كان «مظهرياً» مقبلاً على الدنيا وزخارفها وبهرجها، لا يؤمن بالآخرة والبعث والحساب.

ومن حرصه على هذه المظهرية خروجه على قومه «في زينته». وقد تعددت أقوال المفسرين فى وصف هذه الزينة فقيل كان قد خرج في سبعين ألفاً من تبعه عليهم المعصفرات، وكان أول من صبغ له الثياب المعصفرة، قال السدّي: مع ألف جوار بيض، على بغال بيض، بسروج من ذهب على قطف الأرجوان... وقال قتادة: خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر منها ألف بغل أبيض عليها قطف حمر... وقال الكلبي: خرج في ثوب أخضر كان الله قد أنزله على موسى من الجنة فسرقه منه قارون....[٢].

ولم يقم دليل واحد على صحة هذه التقديرات أو بعضها، لذا كان الفخر الرازى على حق في قوله: «أما قوله فخرج على قومه في زينته، فيدل على أنه خرج بأظهر زينة وأكملها، وليس في القرآن إلا هذا القدر[٣]، فالأولى ترك هذه التقديرات لأنها متعارضة[٤]، والحقيقة التي لاشك فيها أنه خرج في زينة مسرفة غير معهودة في عصره

---

(١) انظر الشوكاني: فتح القدير ٤/٢٢٩.

(٢) القرطبي ٦/٥٠٣٣.

(٣) الفخر الرازي ٦/٤٥٩.

(٤) السابق نفس الصفحة.

كان وراءها الغرور والتكبر والفخر والمباهاة، وكل أولئك انبهر به كثير ممن شاهدوه».

كما تعددت الروايات في تقدير ثروته وأغلبها مغرق في المبالغة، من ذلك ما قيل من أن مفاتيح خزائنه كان يحملها ستون بغلاً لكل خزانة مفتاح، ولا يزيد المفتاح على إصبع، وكانت من جلود، قال أبو رزين: يكفى الكوفة مفتاح(١).

وهي رواية يرفضها من أوتى أثارة من عقل؛ لأنها تعني أن عدد هذه المفاتيح قد بلغ مئات الألوف، ويترتب على ذلك صعوبة - بل استحالة - التمييز بينها، ونسبة كل مفتاح إلى خزانته.

ولعل الأوفق ما روى عن ابن عباس والحسن من أن المفاتح «تحمل على نفس المال وهذا أبين، وعن الشبهة أبعد. قال ابن عباس كانت خزائنه يحملها أربعون رجلاً أقوياء»(٢).

* * *

وتعرض الآيات موقف الآخرين مما رأوا يوم الزينة:

١ - فهناك المبهورون المأخوذون بما رأوا، وقد أشربت قلوبهم حب الدنيا فدعوا أن يكون لهم مثل ما عند قارون. قيل هذا من قول مؤمني ذلك الوقت تمنوا مثل ما له رغبة فى الدنيا.

وقيل هو من قول أقوام لم يؤمنوا بالآخرة، ولا رغبوا فيها وهم الكفار(٣).

٢ - وهناك الذين أوتوا العلم من أحبار بنى إسرائيل الذين تصدوا للفئة السابقة يبينون لهم ما في وجهتهم من خطأ، ويدلونهم على ما هو أصوب وأبقى، وأن طريق الجنة هو الإيمان والعمل الصالح والصبر.

٣ - وكان هناك صوت الإيمان والتوجيه الرشيد من المؤمنين الصالحين على سبيل النصح والإرشاد أو مِنْ موسى، أو مِنْ موسى والمؤمنين من قومه(٤).

ودارت التوجيهات بين أوامر ونَواه:

- فنهوه عن **الفرح**... فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال، والاحتفال بالثراء والتعلق بالكنوز والابتهاج بالملك والاستحواز، لأن الله لا يحب الفرحين المأخوذين بكل ذلك.

---

(١) الكشاف ٣/١٩٠.

(٢) الفخر الرازي ٦/٤٥٧، ومفاتح جمع مفتح (بكسر الميم) وهو المفتاح أو جمع مفتح بفتح الميم وهو الخزانة.

(٣) القرطبي ٦/٥٠٣٣.

(٤) قال بعضهم: القوم هنا موسى، وهو جمع أريد به واحد، كقوله «الذين قال لهم الناس» وإنما هو نعيم بن مسعود (انظر القرطبي ٦/٥٠٢٩)، ولكن منطوق الآية يتسع لأن يكون التوجيه صادراً من موسي وصالحى قومه على فترة واحدة، أو فترات متعددة.

– ونهوه عن **الفساد** وإرادة الفساد فى الأرض بأية صورة من صوره؛ لأن الله لا يحب المفسدين.

– ووجهوه إلى أن يكون متعلق القلب بالآخرة، قاصداً بعمله وجه الله، آخذاً من الدنيا بحظه دون إفراط أو تفريط.

– وأرشدوه إلى الإحسان كما أحسن الله إليه؛ فهذا المال هبة من الله وإحسان، فليقابل الإحسان فيه إحسان التقبل وإحسان التصرف، والإحسان به إلى الخلق وإحسان الشعور بالنعمة وإحسان الشكران(١).

وبتبجح وجحود وبطر يعلن قارون أن ما امتلك من كنوز طائلة إنما جاء لأنه صاحب علم لا يبارَى فيه، فهو جدير بهذا التملك ولا فضل لله فيه، فلا عجب أن يكون أكثر الناس مالاً؛ لأنه أكثر الناس علماً... وينهار منطقه حين يبين السياق أنه لم ينتفع بهذا العلم في عمله وسلوكه وهو أقرأ الناس وأعلم الناس بالتوراة.. نعم كيف غاب عنه أن الله سبحانه وتعالى قد أهَّل في الأزمان الغابرة أفراداً وأمماً فاقوه في القوة... وفاقوه في الغنى. ولا خير في علم لم ينتفع به صاحبه، ولا خير في علم لم ينفع الآخرين.

وتظهر المفارقة الهائلة بين مثل هذا العلم الذى يطغى به صاحبه، وهو يقول «إنما أوتيته على علم عندي» وبين العلم الرسالي النافع الذي نراه في قوله تعالى: ﴿**وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون**﴾.

* * *

ويأتى أمر الله عقاباً قاصماً مشهوداً... تبتلع الأرض قارون وداره وما ملك من قوة ومال، فما من أحد يستطيع إنقاذه، ولا يستطيع أن ينقذ هو نفسه مما نزل به.

«وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس، وردتهم الضربة القاضية إلى الله، وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال، وكان هذا المشهد الأخير.. ﴿**وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكان الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا، ويكأنه لا يفلح الكافرون**﴾.

وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس، ولم يؤتهم ما آتى قارون، وهم يرون المصير البائس الذي انتهى إليه بين يوم وليلة، وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رضى الله، فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده، ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضى والغضب، ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف، إنما هو الابتلاء الذي قد يعقبه البلاء، وعلموا أن الكافرين لا يفلحون، وقارون لم يجهر بكلمة

(١) انظر: في ظلال القرآن ٥ / ٢٧١١.

الكفر، ولكن اغتراره بالمال، ونسبته إلى ما عنده من العلم جعلهم يسلكونه في عداد الكافرين، ويرون في نوع هلاكه أنه هلاك للكافرين»[1].

وإذا كان هذا هو جزاء قارون وأمثاله ممن علوا في الأرض وجحدوا أنعم الله، وإذا كان مثواهم النار يوم القيامة وبئس المصير، فهناك الصورة المقابلة التى تفتح الباب للتقوى والعمل الصالح لمن يريد حسن العاقبة ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين** ﴾.

لقد عرضت سورة القصص قصة طاغيتين: هما فرعون وقارون يجمع بينهما الكفر والعصيان والاستكبار ويجمع بينهما «وحدة النهاية» فالأول ابتلعه اليم هو وجنوده:

﴿ **فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40)** ﴾[2].

أما الثانى ومن معه فقد غيبتهم الأرض: ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ** ﴾[3].

وصورة هذا الطاغية المتكبر المتباهى بماله ليست بعيدة عن المجتمع الجاهلى، حيث بعث النبى ﷺ وكان للتجارة وتثمير المال المكان الأول، وعرفت قريش برحلتيها التجاريتين كل عام: رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام.

وعرفت قريش من طغاة المال الوليد بن المغيرة الذي كان يلقب بريحانة قريش[4]، وقيل إنه كان يحصل له من غلة أمواله ألف ألف دينار وقيل أربعة آلاف دينار وقيل ألف دينار، وكان له من الأولاد ثلاثة عشر ولداً يحضرون بمكة معه لا يسافرون، ولا يحتاجون إلى التفرق في طلب الرزق لكثرة مال أبيهم[5].

وعاش الوليد مشركاً بالله كافراً بنعمته عليه في المال والولد، وكان يقول: «إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة إلا لى»[6]، وهى كلمة تذكرنا بما قاله صاحب الجنة الكافر﴿ **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (36)** ﴾[7].

وتقوَّل على القرآن فزعم أنه سحر، وأنه ليس بكلام الله، فقضى الله بأن عاقبته ستكون سقر.

فصورة قارون وعاقبته إنما سيقت ليعتبر بها الوليد وأمثاله من طغاة المال في المجتمع الجاهلي ثم المجتمعات البشرية على مدار العصور والأجيال، وليزداد المؤمنون بالله إيماناً ويقيناً وثباتاً، ويتمسكوا بدينهم دين الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

---

(1) في ظلال القرآن 5 / 2714.
(2) سورة القصص: [40].
(3) سورة القصص: [81].
(4) أيسر التفاسير 5 / 465.
(5) فتح القدير 5 / 405.
(6) السابق، نفس الصفحة.
(7) سورة الكهف: [36].

ثانيًا : الابتلاء بالضراء

١- الابتلاء في الولد الوحيد، إبراهيم عليه السلام

ابتُلي أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام بالرؤيا، ووصفها الله تعالى بأنها البلاء المبين، أى الاختبار العظيم الذى يبين عن مدى مصداقية إبراهيم، ومدى استجابته لأمر الله. وبشأنها جاءت الآيات (٩٩ - ١٠٧) في سورة الصافات ﴿ **وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)** ﴾.

* * *

وخلاصة القصة كما جاءت في كتب التفسير أن إبراهيم - عليه السلام - بعد خروجه من نار القوم سالمًا قرر الهجرة قائلا «إني ذاهب إلى ربي سيهدين» إلى أرض غير أرض الكفر والعصيان، فنزل إلى بلاد الشام، ودعا ربه أن يرزقه أولادا صالحين، فولدت له «هاجر» - وهي جارية تسراها - غلاما من صفاته الحلم والاتزان هو إسماعيل. فلما بلغ معه السعْي أى كبر وترعرع، وصار يذهب مع أبيه، ويمشي معه وهو في سن السابعة أو تزيد، كانت الرؤيا، ورؤيا الأنبياء فى المنام وحى. وقال إبراهيم لابنه: «يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى»، قال «يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين»؛ أى سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل.

وكان الاستسلام كاملا لأمر الله، وقام إبراهيم وأمسك بابنه الوحيد، وتلّه للجبين أى جعله على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه، فلما همّ بذبحه سمع نداء الله بأنه قد صدَّق الرؤيا، واستسلم لأمر الله بها، وكان الجزاء ذبحا أى كبشا عظيما ذبحه إبراهيم بدلا من ذبح ولده، وأبقى الله على إبراهيم ثناء عاطرا وذكرا حسنا فيمن جاء بعد إبراهيم من الأمم والشعوب(١).

* * *

وأمام هذا السياق الكريم ثمة ملاحظات تتلخص فيما يأتي:

---

(١) راجع بتفصيل: تفسير ابن كثير ٧/١٦ - ٢٢. وقصص الأنبياء لابن كثير ١٦٧ - ١٧٢.

الملاحظة الأولى: وصف الله سبحانه وتعالى هذا الأمر منه تعالى لإبراهيم – بطريق الرؤيا – بذبح ابنه – وهو وحيده – بأنه بلاء مبين، أى اختبار عظيم، فذبح الأب لابنه – وخصوصا إذا كان وحيده وفي أرض غير أرضه وهو من جارية ضعيفة لا حول لها ولا طول – كلها عوامل كان يمكن أن تفجر فى النفس صراعا بين الاستجابة لأمر الله وبين عاطفة الأبوة، أو ما يسميه علماء النفس «بغريزة الوالدية» وهي التي دفعت نوحا عليه السلام – زيادة على طمعه في رحمة الله – إلى أن يدعو ربه أن ينجي ابنه – على عصيانه – من الغرق ﴿ **وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ** (٤٥) ﴾[1].

ولكن إبراهيم – عليه السلام – لم يسمح لمثل هذا الصراع أن يأخذ طريقاً إلى نفسه، وسارع إلى ابنه ليخبره بما رأى، وربما خشي إبراهيم أن تغلبه عاطفة الأبوة، فيأخذه شيء من التراجع عن ذبح ابنه إذا ما نظر إلى وجه وعينيه، فتله للجبين، أي جعل وجهه إلى أسفل ليكون الذبح من قفاه.

الملاحظة الثانية: أن إجابة إسماعيل – عليه السلام – تشي بطاقة من الإيمان والوقار والعقل لا تعهد عادة في من كان في مثل سنه[2]، فكان جوابه: «يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين». وهو – وإن كان جوابا في مسأله محدده: – أخذ صفة التعميم بضرورة تنفيذ ما يأمر به الله أيا كان موضوعه، يستوى في ذلك النفس والمال والولد.

وهو جواب يلتقي مع طبيعة «الغلام الحليم» الذي بشر به الله إبراهيم «فبشرناه بغلام حليم»، والحلم هو الأناة والعقل والحلم، نقيض السفه[3]. والحلم ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب[4]، فكان «الإسلام» أى الاستسلام الكامل من الأب وابنه: استسلام الأب وانقياده بامتثال أمر الله تعالى، واستسلام إسماعيل وانقياده بطاعة الله وطاعة أبيه، فحققا الأمر والتكليف، ولم يكن باقيا إلا أن يذبح إسماعيل، ويسيل دمه، وتزهق روحه، وهذا أمر لا يعني شيئا في ميزان الله بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما.

«كان الابتلاء قد تم والامتحان قد وقع، ونتائجه قد ظهرت، وغاياته قد تحققت، ولم

---

(١) سورة هود: [٤٥]: أى من أهل نوح، وقد وعد الله أن ينجيهم من الغرق في قوله ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ**.. ﴾ [سورة هود: ٤٠] ثم كان حكم الله بنفي هذه الأهلية وهذا النسب ﴿ .. **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**.. ﴾ [سورة هود: ٤٦].

(٢) فقد كان في السابعة من عمره، ومن زاد في التقدير وصل بها إلى الثالثة عشرة.

(٣) لسان العرب ١ / ٩٨٠.

(٤) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ١٣٦.

يعد إلا الألم البدني وإلا الدم المسفوح والجسد الذبيح، والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء، ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء. ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا، وقد حققوا التكليف، وقد جازوا الامتحان بنجاح. وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا»[1].

* * *

والقصة تفرز كثيرا من الدروس والعبر والقيم والتوجيهات منها:

١ - ضرورة الامتثال لأمر الله والاستجابة له، وأخذ النفس به، وتقديمه على ما سواه، حتى لو كان في ذلك التضحية بالنفس والولد والأهل والمال ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)**﴾[2].

٢ - الابتلاء يأتي على قدر الإيمان، وحينما سئل رسول الله ﷺ «أيُّ الناسِ أشدُّ بلاء؟ قال: الأنبياءُ ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل....»[3].

٣ - من يتق الله يجعل له مخرجا، ويجعل له اليسر بعد العسر، والفرج بعد الشدة؛ فقد فدى الله سبحانه وتعالى إسماعيل بذبح عظيم، وبقي لإبراهيم وإسماعيل بعد ذلك أجر الاستجابة والطاعة بتسليم كامل، ودون إبطاء.

٤ - «على الآباء أن يحسنوا تربية أبنائهم، ويقوموا بحقوقهم في الصغر، حتى يقوموا بواجباتهم نحوهم ونحو أمتهم إذا أصبحوا رجالا»[4]، فما كان إسماعيل عليه السلام ليصل إلى هذه الدرجة من الاستجابة لله وطاعته - وهي تكلفه حياته - إلا بحسن تربيته وتوجيهه، وحرص أبيه على غرس قيم الإيمان والتقوى والنقاء في نفسه من صغره.

٥ - المؤمن مطالب بإتقان عمله وإحسانه، متجنبا العوامل التي قد تصرفه عن هذا العمل، أو تنقص من إتقانه، وقد رأينا إبراهيم عليه السلام قد تل ابنه للجبين، متفاديا نظراته حتى لا يؤثر ذلك في نفسه، وتأخذه شفقة الأبوة فيتراجع عن الاستجابة لأمر الله، أو لا يذبحه إلى النهاية، والله سبحانه وتعالى - وله المثل الأعلى- أتقن كل شيء خلقه ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)**﴾[5]. وعن شداد بن أوس -

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٩٦.
(٢) سورة الأنعام: [١٦٢ - ١٦٣].
(٣) انظر الحديث بتمامه وتخريجه في الفصل الثاني من هذا البحث ص: ٥١.
(٤) د. محمد أبو فارس: الابتلاء والمحن في الدعوات ٣٣.
(٥) سورة النمل: [٨٨].

رضي الله عنه – قال « ثنتان حفظتُهما عن رسول الله ﷺ قال: إن الله كتب الإحسانَ على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته »[1].

٦ – سرعة الاستجابة والامتثال لتوجيهات أصحاب الفضل والمشهود لهم بالعلم والدين – وخصوصا في مجال الدعوة والسلوك بعيدا عن التماري واللجج في الجدل – دليل على كمال الإيمان، ومحقق مصلحة العمل، وجالب – للمستجيب الممتثل – التوفيق في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصيد والذبائح. باب: الأمر بإحسان الذبح.... حديث ٥٤ – ٤/٦٢٢.

وأحمد بإسناد صحيح. حديث ١٧٠٤٩ – ١٣/٢٦٨، ١٧٠٥٢ – ١٣/٢٦٩، ١٧٠٦٤ – ١٣/٢٧٣، ١٧٠٧٤ – ١٣/٢٧٦.

والنسائي: كتاب الصيد والذبائح: حديث ٤٤٠٥ – ٧/٢٢٧، (٤٤١١، ٤٤١٢، ٤٤١٣) – ٧/٢٢٩، ٤٤١٤ – ٧/٢٣٠.

والترمذي: في كتاب الديات (١٤) باب: ما جاء النهي عن المثلة (١٤). حديث ١٤٠٩ – ٤/٢٢. وقال حديث حسن صحيح.

وأبو داود. كتاب الضحايا – باب النهي أن تصبر البهائم. حديث ٢٨١٥ – ٣/١٠٠.

٢ - الابتلاء بالمرض: أيوب عليه السلام

لم يعالج القرآن الكريم قصة أيوب تفصيلا، ولكنه اكتفى بعرض قصة ابتلائه بالضراء على سبيل الإجمال لا التفصيل، وذلك في آيتين من سورة الأنبياء، وأربع آيات من سورة ص.

ففي سورة الأنبياء:

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) ﴾(١).

وفي سورة (ص):

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) ﴾(٢).

وقطع القرآن أنه نبي من أنبياء الله فقال تعالى **﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) ﴾**(٣).

* * *

وأيوب عليه السلام أحد الذين اصطفاهم الله بالنبوة. وآتاه جملة عظيمة من الثروة في أنواع من الأموال والأولاد. وكان شاكرا لأنعم الله مواسيا لعباد الله برًا رحيما(٤).

ويقال: إنه دخل مع قومه على جبار عظيم فخاطبوه في أمر، فجعل أيوب يلين له في القول من أجل زرع كان له فامتحنه الله بذهاب ماله وأهله وبالضر في جسمه حتى تناثر لحمه وتدود جسمه، حتى أخرجه أهل قريته خارج القرية، وكانت امرأته تخدمه(٥).

وفي مظاهر مرض أيوب كثرت الأقوال حتى رصد منها القرطبي خمسة عشر قولاً(٦)، وأغلب هذه الروايات لا يعتد بها، ولا دليل قويا على صحتها، ولا يهضمها

---

(١) سورة الأنبياء: [٨٣ - ٨٤]. (٢) سورة ص: [٤١ - ٤٤].

(٣) سورة النساء: [١٦٣]، وارجع كذلك إلى الآية ٨٤ من الأنعام وارجع إلى قصة أيوب عليه السلام مفصلة في كتاب ابن كثير «قصص الأنبياء» ٢٨١ - ٢٨٨.

(٤) القرطبي ٧/٥٦٥٢. (٥) القرطبي ٥/٤٣٦٣.

(٦) القرطبي ٥/٤٣٦٣ - ٤٣٦٥. وقد زاد القرطبي عليها قولين فبلغت سبعة عشر قولاً.

عقل، وطوابع الإسرائيليات واضحة فيها، من ذلك - وهو القول السابع: «أن دودة سقطت من لحمه فأخذها وردها في موضعها فعقرته فصاح «مسَّنِيَ الضر» فقيل «أعلينا تتصبر»[1].

والقول السابع عشر: أن دودة سقطت من جسده فطلبها ليردها إلى موضعها، فلم يجدها فقال «مسني الضرّ»، لما فقد من أجر ألم الدودة، وكان أراد أن يبقى له الأجر موفرا إلى وقت العافية[2]. وهو قول غريب ظاهر الوهن لأنه يعني أن الله كان يثيب نبيه أيوب طبقاً لعدد الدود الذى ينهش بدمه! ومن عجب أن يستحسن القرطبي هذا القول فشهد بأنه «حسن إلا أنه يحتاج إلى سند»[3].

والأمر الذي لا يمكن الخلاف عليه هو أن أيوب أصيب بمرض خطير بشع الآثار، وربما لم يكن معهودا في وقته ومجتمعه، وإن ذكر ابن كثير أنه «الجذام»[4]، وأن هذا المرض ظل يلازمه مدة طويلة بلغت عدة سنوات، وارتفعت - في قول - إلى ثمانية عشر عاما، زيادة على إصابته في ماله وولده، وجفاء أهل قريته له.

ولكنه ظل صابرا محتسبا.. ويتجه بدعائه إلى الله، «وهو فى دعائه لا يزيد على وصف حاله «أني مسني الضر» ووصف ربه بصفة «وأنت أرحم الراحمين»، ثم لا يدعو بتغيير حاله صبرا على بلائه، ولا يقترح شيئا على ربه تأدبا معه وتوقيرا، فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء، ولا يتململ من الضر الذي تضرب به الأمثال في جميع الأعصار، بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه اطمئنانا إلى علمه بالحال، وغناه عن السؤال[5].

قال العلماء: ولم يكن قوله «مسني الضر» جزعا لأن الله تعالى قال ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾، بل كان ذلك دعاء منه، والجزع فى الشكوى إلى الخلق لا إلى الله تعالى، والدعاء لا ينافي الرضا. قال الثعلبي: سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرت مجلسا غاصا بالفقهاء والأدباء في دار السلطان فسئلت عن هذه الآية بعد إجماعهم على أن قول أيوب كان شكاية، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾. فقلت: ليس هذا شكاية وإنما كان دعاء، بيانه ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ**﴾.

والإجابة تتعقب الدعاء لا الاشتكاء، فاستحسنوه وارتضوه[6].

ونلاحظ أن دعاء أيوب ربه اختلفت صيغته ما بين سورتي (الأنبياء) و (ص).

---

(١) السابق ٥ / ٤٣٦٣.
(٢) السابق ٥ / ٤٣٦٥.
(٣) السابق، نفس الصفحة.
(٤) تفسير ابن كثير ٧ / ٤٦.
(٥) في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٩٢.
(٦) القرطبي ٥ / ٤٣٦٦.

ففي سورة الأنبياء:

﴿ وأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

وفي سورة (ص):

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾

والضر: هو كل ما يصيب الإنسان من أذى فيتسع للمرض وفقد المال والأهل والولد.

والنُصْب: المشقة.

والعذاب: الألم الشديد.

«ونسب ذلك إلى الشيطان – وإن كانت الأشياء كلها من الله– تأدبا معه تعالى»[1].

واستجاب الله لأيوب بعد هذا البلاء الطويل، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله، ففعل، فأنبع الله تعالى عينا، وأمره أن يغتسل منها، فأذهبتْ جميع ما كان فيه بدنه من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر، فأنبع له عينًا أخرى، وأمره أن يشرب منها، فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾[2].

وعوضه الله عما فقد من أهل وولد، ومتعه بصحته وبماله وقواه حتى كثر نسله، وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك[3]. إنها رحمة منه تعالى: ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ أى تذكيرًا للعبّاد، لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه ومحنته له، وهو أفضل أهل زمانه، وطَّنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نحو ما فعل أيوب، فيكون هذا تنبيها لهم على إدامة العبادة واحتمال الضرر[4].

فهذه الهبة جاءت رحمة وتذكيرا للعابدين وكذلك تذكيرا «لأولي الألباب» وهم الذين يتفكرون ويحسنون التفكير والاتعاظ، فهم إذا سمعوا بما أنعم الله به على أيوب لصبره رغَّبهم في الصبر على البلاء وعاقبة الصابرين وما يفعل الله بهم[5].

وقد أثنى الله على أيوب إذ وجده في ابتلائه صابرا، ووصفه كذلك بأنه (أواب)؛ أي رجاع إلى الله في كل أموره، فهو الملجأ وهو – الملاذ:

وهناك مخرج آخر يسره الله لأيوب فى مسألة فردية قد تبدو عابرة ولكن لها دلالتها القوية النافعة، وتتلخص في أن أيوب كان قد غضب على زوجته – وهو في شدة

---

(١) تفسير الجلالين ٦٠٢ – وانظر كذلك الكشاف: ٣/ ٣٧٦.
(٢) تفسير ابن كثير: ٧/ ٤٧.
(٣) الفخر الرازي: ٧/ ٢٠١.
(٤) القرطبي: ٥/ ٤٣٦٧.
(٥) الكشاف: ٣/ ٣٧٧.

مرضه- لتصرف أثاره، فحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، ولكن الله سبحانه وتعالى أفتاه أن يأخذ « ضغثًا » أى حزمة من حشيش يابس بها مائة عود أو شمراخا فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة ففعل، وبذلك « برت يمينه وخرج من حنثه، ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه، ولهذا قال جل وعلا ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾، أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه رجاع منيب، ولهذا قال جل جلاله ﴿ **... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)** ﴾[١].

واستدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل في الإيمان وغيرها، وقد أخذوها بمقتضاها[٢].

* * *

لقد مضت قصة أيوب ولم تزل خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما عليها، وأصبح « صبر أيوب » هو المثل الأعلى في الصبر على ما يصاب به الإنسان من ضراء.

وقد قدم الله سبحانه وتعالى هذه القصة في سياق قصص أخرى تسلية لمحمد بن عبد الله ﷺ وتقوية لعزيمته في مواجهة الكفار الذين عاشوا « في عزة وشقاق »، وتقولوا عليه واتهموه بأنه « ساحر كذاب » وشككوا في أن يكون القرآن منزلا من عند الله.

وقدم الله – سبحانه وتعالى – مواقف للأنبياء والرسل ليتأسى بها النبى ﷺ في صراعه مع الكفار، وجاءت قصة أيوب – كما ذكرنا – « تصور ابتلاء الله للمخلصين من عباده بالضراء، وصبر أيوب مثل في الصبر رفيع وتصور حسن العاقبة، وتداركه برحمة الله تغمره بفيضها، وتمسح على آلامه بيدها الحانية. وفي عرضها تأسية للرسول – ﷺ – وللمؤمنين، عما كانوا يلقونه من الضر والبأساء في مكة، وتوجيه إلى ما وراء الابتلاء من رحمة تفيض من خزائن الله عندما يشاء »[٣].

وتحرص الآيات على شد انتباه النبي ﷺ إلى هذه المواقف بالأفعال التي تدل على ذلك وتربط الماضي بالحاضر الذي يعيشه النبي والمجتمع القرشي، كما ترى في سورة (ص).

---

(١) سورة الطلاق: [٢ – ٣].

(٢) ابن كثير: ٧/ ٤٨.

وفي الفقه الإسلامي باب واسع اسمه (الحيل).

انظر الموسوعة الفقهية – (الكويت).

١٨/ ٣٢٨ – ٣٣٤.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٠٥.

- ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾(١).
- ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾(٢).
- ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾(٣).
- ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ ﴾(٤).
- ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾(٥).

* * *

والتذكير من الله لنبيه محمد ﷺ - كما أشرنا أكثر من مرة - لم يأت للتعريف، وتلقين معلومات تاريخية، ولكنه جاء للتعليم والتربية، والاقتداء والتأسي، والوفاء عقديا وعمليا للقيم العليا، والخلق السوي، وهو القدوة المثالية، والأسوة الحسنة للأمة التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس.

(١) سورة ص: [١٧].
(٢) سورة ص: [٢١].
(٣) سورة ص: [٤١].
(٤) سورة ص: [٤٥].
(٥) سورة ص: [٤٨].

٣ - الابتلاء بالمرأة والسجن : يوسف عليه السلام

تعرض يوسف بن يعقوب عليهما السلام لمحن ثلاث : محنة إلقائه فى الجب وهو طفل صغير وتعريض حياته للخطر، وتولى كبر ذلك إخوته الذين كانوا يحسدونه لمكانته عند أبيه وحبه الشديد له وتعلقه به، ومحنة تعرضه لكيد امرأة العزيز، ومحنة السجن لسنوات طويلة.

ونجاه الله من كيد إخوته ﴿ **وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)** ﴾[1].

وطلب عزيز مصر من زوجته أن « تكرم مثواه » وقد أنعم الله على يوسف - الذى بلغ أشده فى قصر العزيز - بنعمتين: الأولى حسية وهى جمال الخلقة حتى ضرب المثل بهذا الجمال على مدار التاريخ، والثانية عقلية : وهى أن الله آتاه من لدنه الحكمة والعلم، وقد ظهرت هذه النعمة فيما بعد فى القدرة على تعبير الرؤيا وحسن السياسة وتدبير أمور الناس فى المعاش.

* * *

وكانت المحنة الثانية - والابتلاء الأول الذى تعرض له بعد أن بلغ أشده ونضجت فيه مظاهر الرجولة وحيوية الشباب - تعرض امرأة العزيز له ومراودته لارتكاب الفحشاء معها ﴿ . . . **وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)** ﴾[2].

إنه التصميم الفاحش والإصرار المخزى من امرأة العزيز على إرواء الغريزة البهيمية التى تتحرك وتضطرم فى أعماقها، وقد أخذت للأمر عدته، فغلقت الأبواب، وصارحت

---

(١) سورة يوسف: [١٩-٢٠].

(٢) سورة يوسف: [٢٣-٢٩].

يوسف بأنه لا مخلص له منها. وحدث الهمّ منها على اليقين بدليل إغلاقها الأبواب، وجذبه من قميصه حين حاول الفرار حتى شقته من دبر، وإسراعها إلى الباب تمنعه الخروج حتى تحقق ما تبغى، وحتى لا يفتضح أمرها. وفى همه بها أقوال: فقيل هم بضربها، وقيل تمناها زوجة، وقيل هم بها لولا أن رأى برهان ربه؛ أى فلم يهم بها[١]. وتعددت الأقوال كذلك فى البرهان الذى رآه فقيل رأى صورة أبيه عاضا على إصبعه بفمه، وقيل ضرب فى صدر يوسف، وقيل رأى خيال سيده، وقيل نظر إلى السقف فإذا آيات كتبت على الحائط منها ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا** ﴾[٢].

ويقول ابن كثير: «ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى. وقوله: ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوءَ والفحشاء** ﴾ أى كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه كذلك نقيه السوء والفحشاء فى جميع أموره ﴿ **إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ أى من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار[٣].

ثم كانت المفاجأة أن تجد زوجها عند الباب، فتقذف يوسف بدائها، وتهيجّ عليه زوجها وتخاطبه: ﴿ **مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)** ﴾[٤].

ومن عجب أن تسأل وتقترح هى نوع العقاب وتحصره فى اثنين: إما السجن وإما العذاب؛ أى الضرب الأليم. ومثل هذه الجريمة - ارتكاب الفحشاء أو محاولته ارتكابها مع امرأة فى مثل مركزها وهى زوجة عزيز مصر - يجب أن يكون جزاؤها الموت. «ولكنها امرأة تعشق فهى تخشى على يوسف الردى فتشير بالعقاب المأمون: ﴿ **مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)** ﴾[٥]، فما زال لها فيه مطمع وهى عاجزة عن أن تخلعه من قلبها.

ويدافع يوسف عن نفسه بأنها هى التى راودته عن نفسه، تأتى شهادة واحد من أهل امرأة العزيز بما يقود إلى الحكم الحاسم اعتمادا على قرينة مشهودة هى قميص يوسف: إن كان قُدّ من دبر فهذا يعنى محاولتها شده إليها وهو يولى منها فرارا، أما إن كان قد قدّ من قبل، فهذا يعنى أنه حاول اغتصابها والعدوان على عفافها فحاولت دفعه عنها... وظهر فى جلاء براءة يوسف وكذب امرأة العزيز.

ويقول الفخر الرازى: إن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة قد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية: فيوسف ادعى البراءة من الذنب بقوله عليه السلام ﴿ **هى راودتنى عن نفسى** ﴾ وقوله عليه السلام ﴿ **رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه** ﴾.

---

(١) انظر فى هذه الأقوال: تفسير ابن كثير ٤ / ١٦٦.
(٢) السابق ١٦٧.
(٣) السابق نفس الصفحة.
(٤) سورة يوسف: [٢٥].
(٥) سيد قطب: التصوير الفنى فى القرآن ٢٠٦.

والمرأة قد اعترفت بذلك فقالت للنسوة «**ولقد راودته عن نفسه فاستعصم**» وأيضا قالت: ﴿ **الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾ وأقر زوج المرأة بذلك فى قوله ﴿ **إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم. يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك** ﴾.

وأما الشهود فقوله تعالى: ﴿ **وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين...** ﴾.

وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخْلَصين** ﴾...

وأما بيان أن إبليس أقر بطهارته فلأنه قال﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)** ﴾[١]، فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ويوسف من المخلصين لقوله تعالى: ﴿ **إنه من عبادنا المخلصين** ﴾، فكان هذا إقرارا من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريقة الهدى[٢].

* * *

وسرى الخبر فى المدينة كلها وخصوصا بين النساء﴿ **وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٠)** ﴾[٣].

واستدعت امرأة العزيز هؤلاء النسوة إلى قصرها، وقدمت لهن نوعا من الفاكهة، وأمرت يوسف بالخروج عليهن فذهلن عن أنفسهن من جماله حتى جرحن أيديهن بسكاكين الفاكهة، حتى تقيم الحجة عليهن بأنها لا تلام حين تقع أسيرة لهذا الحسن.

وفى تبجح تعلن على رءوسهن أنها مازالت مصممة على تحقيق ما تصبو إليه أو هو السجن والإذلال!

* * *

وخرج يوسف من هذه المحنة وهذا الابتلاء طاهرا نقى الذيل... ليبدأ ابتلاء جديد آثره على الفحشاء فقال بلسان الحال ولسان المقال ﴿ **رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** ﴾[٤].

وسُجن يوسف حتى تموت الشائعة التى سرت فى المدينة مسرى النار فى الهشيم، ويوهموا الناس أنهم ما سجنوه إلا لأنه راود امرأة العزيز عن نفسها.

---

(١) سورة ص: [٨٢، ٨٣].
(٢) الفخر الرازى ٥/١١٨.
(٣) سورة يوسف: [٣٠].
(٤) سورة يوسف: [٣٣].

وفى السجن كان يوسف على مستوى النبوة والعقل والحكمة فتلقى هذا البلاء بصبر وجلد، ولم يكن «من الصاغرين» كما تمنت امرأة العزيز.

وفى السجن دعا صاحبيه إلى الإيمان بالله... فهو الواحد القهار أما ما يعبدونه فأشياء متفرقة من أصنام وأوثان يعبدونها وهم صانعوها، وتلقوا عبادتها عن آبائهم دون عقل أو حجة وبرهان. «ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه، ودينه هو الدين «القيم»؛ أى المستقيم الذى أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه(١).

إنه صوت النبوة الهادية يرفعه نبى مرسل بأمر الله فى كل مكان يحل به دون أن تشغله محنة السجن أو غيرها عن أداء رسالته التى كلف بها، وائتمن عليها.

ثم وظف قدرته فى الفراسة وتعبير الرؤيا وهو فى السجن. وعبر رؤيا صاحبيه فى السجن: فالساقى يعود إلى مكانته الأولى «يسقى ربه - أى سيده - خمرا»، أما طباخ الملك فيصلب فتأكل الطير من رأسه. ووصّى يوسف الساقى أن يذكر قصته ويشرح قضيته للملك، ولكن الشيطان أنساه ذلك، فلبث في السجن بضع سنين، إلى أن كانت رؤيا الملك ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣)** ﴾(٢). وعجز رجال الملك عن تفسير الرؤيا، فيذكر الساقى نبى الله يوسف، وينطلق إليه فى السجن فيعبر له الرؤيا، فيطلب الملك ليراه، وهنا يظهر الرجل الحصيف: لقد دخل السجن ظلما وإن حوله للغطاً، وإنه لن يأمن إذا خرج أن يرد إلى السجن كما دخل إليه أول مرة، فهو ينتهز الفرصة المناسبة للحصول على الضمان والبراءة ﴿ **قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠)** ﴾(٣) ويسألهن الملك فيجبن بالحقيقة، وترى امرأة العزيز أن تبرئه أيضا ﴿ **قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١)** ﴾(٤).

فإذا رأى أنس الملك به وارتياحه لتأويله وسمع منه قوله ﴿ ... **إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤)** ﴾(٥). لم يدعْ الفرصة تذهب، بل قال ﴿ **اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)** ﴾(٦)، فيجاب إلى طلبه فى أنسب الظروف. ويدل تصرف يوسف فى سنى الخصب والجدب على مهارة واضحة فى الإدارة والاقتصاد، فقد أشرف على المالية

---

(١) انظر ابن كثير ٤ / ١٧١.

(٢) سورة يوسف: [٤٣].

(٣) سورة يوسف: [٥٠].

(٤) سورة يوسف: [٥١].

(٥) سورة يوسف: [٥٤].

(٦) سورة يوسف: [٥٥].

والتموين أربع عشرة سنة، لا على تموين مصر وحدها ولكن على تموين البلاد القريبة المجاورة التى أجدبت كذلك، وجاءت مصر تستجدى الخبز والحياة سبع سنين[1].

وتحولت محن يوسف إلى منن ونعم من الله، وأحضر أبويه وأهله من البادية إلى مصر، من أرض الجدب والفقر والجوع إلى أرض الخصوبة والغنى ﴿ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)** ﴾[2].

* * *

إن الابتلاء الذى تعرض له يوسف فى صورتيه: فتنة المرأة ومحنة السجن وموقف يوسف من هذين الابتلاءين فى مراحلهما المختلفة، كل أولئك يعكس قيما ودروسا وعبرا خالدة على مدار التاريخ، وعلى المسلم الذى يعرض له مثل ذلك أن يتأسى بيوسف عليه السلام. ومن ذلك:

١ – أن يستعيذ الإنسان بربه ويذكره دائما إذا ما تعرض لفتنة.

٢ – أن يرعى الأمانة فى التعامل مع من أحسن إليه ومع أهله فى الحضور والغياب على سواء.

٣ – أن يبذل أقصى طاقاته فى التصدى للفتنة والتخلص مما يعرضه لغضب الله.

٤ – أن يتحلى بالصبر ويتحمل العذاب ليتفادى الوقوع فى الإثم والمنكر والبغى والفحشاء.

٥ – أن يستغل كل طاقاته التى أنعم الله بها عليه: العلمية والعقلية والروحية والجسدية لينتفع بها، وينفع بها عباد الله على مستوى مجتمعه، ومستوى المجتمع الإنسانى كله.

٦ – أن يجعل الدعوة إلى الله وإلى دينه، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر همه الأكبر فى السراء والضراء والمنشط والمكره.

٧ – أن يعالج الأمور بحكمة وأناة مستخدما الحجج والبراهين فى الحوار لإقناع الآخرين

---

(١) سيد قطب: التصوير الفنى فى القرآن ٢٠٧–٢٠٨، وانظر: فى ظلال القرآن ٤ /١٩٨٧–١٩٩٦.

(٢) سورة يوسف: [١٠٠–١٠١].

وتوجيههم إلى الخير.

٨ - أن يعتز بنفسه، ويحرص على كرامته فى استعلاء إيمانى ويقين مكين، حتى لو كان فى هذا الاعتزاز إطالة لمحنته، ومزيد من الأذى[١].

٩ - أن يُرجع كل ما رزقه الله من نعم فى العقل والجسم والمال والولد إلى الله، فهو ولى النعم، ويشكره على ما أنعم به عليه[٢].

١٠ - أن يعتز بما يملكه من مواهب وقدرات ويصرح بذلك إذا كان فى ذلك مصلحة، مع البعد عن الكبرياء والغرور[٣].

١١ - أن يتوخى اختيار العمل المناسب له بناء على نوعية القدرات والإمكانات التى يملكها، حتى يتمكن من أداء العمل وتثميره على أحسن الوجوه.

---

(١) كما رأينا فى رفض يوسف عليه السلام أمر الملك بالخروج من السجن والمثول أمامه واشترط أن يتبنى الملك قضيته بنفسه، فيسأل امرأة العزيز ونساء المدينة عن الحقيقة. وفعل الملك، وأكد الجميع براءته صراحة.

(٢) فيوسف يقول لصاحبى السجن « ذلكما مما علمنى ربى »، « ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ».

(٣) كما نجد فى قول يوسف للملك ﴿ **اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)** ﴾ يوسف : ٥٥.

٤ – الابتلاء في الدين

المؤمنون وأصحاب الأخدود

يقول تعالى في سورة البروج [١ – ١٠]:

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) ﴾.

تعرض الآيات السابقة – في إيجاز – لمحنة عاتية نزلت بالمؤمنين قبل عهد الرسول محمد ﷺ.. وعوقب هؤلاء المؤمنون بالقتل حرقاً في أخدود كبير مليء بالنار، وأصحاب الأخدود هم الكفرة الذين لم يكتفوا بحرق المؤمنين، ولكنهم حرصوا على القعود على حوافّ الأخدود ليسعدوا ويمتعوا أنظارهم بأجساد المؤمنين التي تشويها النيران، ولا ذنب لهم إلا أنهم أصروا على الإيمان «بالله العزيز الحميد»، لذلك لعنهم الله سبحانه وتعالى، وأقسم إنهم ملعونون بقوله «قتل»، قال ابن عباس: «كل شيء في القرآن «قتل» فهو لعن»[١].

وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة من هم؟:

– فعن علي أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم فامتنع عليهم علماؤهم، فعمد إلى حفر أخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم.

– وعنه أنهم كانوا قوماً باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم، فغلب مؤمنوهم على كفارهم؛ ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين، فخدّوا لهم الأخاديد وأحرقوهم فيها.

– وعنه أنهم كانوا من أهل الحبشة[٢].

ونقل ابن إسحاق رواية طويلة عن قصة الأخدود وأهله تتلخص في أن أهل نجران لما تركوا عبادة الأوثان وآمنوا بالله الواحد لا شريك له على يد رجل يسمى عبد الله بن

---

(١) القرطبي ٨ / ٧٠٧٧، كما نرى في قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) ﴾ [الذاريات ١٠ – ١١]، وقوله تعالى في الوليد بن المغيرة: ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ﴾ [المدثر: ١٨ – ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) ﴾ [عبس: ١٧].

(٢) تفسير ابن كثير ٨ / ٢٠٧، وانظر كذلك الفخر الرازي ٨ / ٣٦٧ – ٣٦٨.

الشامر سار إليهم الملك ذو نواس الحميري، فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين ذلك والقتل، فاختاروا القتل فخدّ لهم الأخدود، فحرق من حرق بالنار، وقتل بالسيف، ومثل به حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً(١).

ومهما اختلفت الروايات في تحديد موقع هذه المحنة وتاريخها وأسماء من تولى كبرها فإنها جميعاً تلتقي في أن هناك بغاة طغاة تسلطوا على فئة من المؤمنين بالله، وحاولوا بالترهيب أن يجبروهم على التخلي عن عقيدتهم، وأنهم أبوا فكان نصيبهم القتل بإلقائهم في نار هائلة.

* * *

كانت هذه هي الخطوط الأساسية للمحنة، وقد أجمعت عليها - كما ألمحت - كل الروايات.

«والحكمة من عرض قصة أصحاب الأخدود واضحة، فقد أعلم الله عز وجل المؤمنين من أمة محمد في هذه الآيات ما كان يلقاه من وجد قبلهم من الشدائد يؤنسهم بذلك، وذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وعظم صبره، وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا في دينهم(٢).

«إنها روعة الإيمان المستعلي على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض، فقد كانت في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟

كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد! إنه معنى كريم جداً، ومعنى كبير جداً هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض، ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب، ولأعدائهم الطاغين حساب»(٣).

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٤ - ٣٥.

(٢) القرطبى ٨/ ٧٠٨٤، عرضنا لقصة «الغلام والراهب» في حديثنا عن الابتلاء في السنة، وقد عرضتها أغلب كتب التفسير: ابن كثير ٨/ ٢٠٨، الطبرى ١٥/ ١٦٧ - ١٦٩، القرطبى ٨/ ٧٠٧٨، فتح القدير ٥/ ٥٢٤.

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٧٤.

«وبعد عرض مشهد المحنة العاتية محنة الأخدود التي انتصر فيها الإيمان على الكفر يأتي حكم رباني قاطع في قوله تعالى: ﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾، ويحتمل أن يكون المراد منه أصحاب الأخدود فقط، ويحتمل أن يكون المراد كل من فعل ذلك، وهذا أولى لأن اللفظ عام، والحكم عام، فالتخصيص ترك للظاهر من غير دليل»(١).

«وينص الحكم على «الحريق» وهو مفهوم من عذاب جهنم... ليكون مقابلاً للحريق في الأخدود، وبنفس اللفظ الذي يدل على الحدث، ولكن أين حريق من حريق في شدته أو في مدته؟ وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق، وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق! وحريق الدنيا لحظات وتنتهى، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين، وانتصار لذلك المعنى الإنسانى الكريم، ومع حريق الآخرة غضب الله والارتكاس الهابط الذميم»(٢).

---

(١) الفخر الرازى ٨/ ٣٧٠.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٧٤.

ثالثاً : الابتلاء بالآيات :

ثمود وناقة صالح

بعث الله نبيه صالحاً إلى « ثمود »، وهم قبيلة مشهورة يقال لها ثمود باسم جدهم « ثمود » أخي جديس، وهما ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح، وكانوا عرباً من العاربة يعبدون الأصنام ويسكنون « الحجر » الذي بين الحجاز وتبوك، وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين(١)، وعن قصتهم يقول تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾(٢).

* * *

وخلاصة القصة التي يمثل الابتلاء محورها الأساسي أن صالحاً دعا قومه إلى عبادة الله وتوحيده وترك عبادة الأوثان فسألوه أن يأتي بآية تكون دليلاً على صدق نبوته ودعوته، وكانت الآية خروج ناقة من الجبل، وطلب منهم صالح أن يتركوها ترعى ولا يمسوها بسوء وإلا نزل بهم عذاب أليم فقد جعلها الله (فتنة لهم)، ويقال : إن الناقة كانت ترعى وتأتي إلى ماء القوم فتشربه كله، ويتحول الماء في بطنها إلى لبن خالص يحلبونه ويشربون منه ما شاءوا . . . فهي إذن ناقة خارقة ليست ككل النوق لأنها (ناقة الله) .

---

(١) الآية لغة : العلامة والإمارة والعبرة [القاموس المحيط ١٦٢٨]، وهي مشتقة من التأيي وهو التثبت والإقامة على الشيء [الراغب : المفردات ٤١]، وفي الموضوع : راجع قصص الأنبياء لابن كثير ١٢٠ – ١٣٣، وقصص الأنبياء للنجار ٥٨ – ٦٩.

(٢) سورة الأعراف : [٧٣ – ٧٩]، وارجع كذلك إلى سورة هود ٦١ – ٦٨، والشعراء : ١٤١ – ١٥٩، والنمل ٤٥ – ٥٣، والقمر ٢٣ – ٣١، والشمس ١١ – ١٥ .

وذكرهم صالح بفضل الله عليهم «ونلمح من هذا التذكير أثر النعمة والتمكين في الأرض لثمود، كما نلمح طبيعة المكان الذي كانوا يعيشون فيه، فهو سهل وجبل، وقد كانوا يتخذون في السهل القصور، وينحتون في الجبال البيوت، فهي حضارة عمرانية واضحة المعالم...

وصالح يذكرهم استخلاف الله لهم من بعد عاد، وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها... وبذلك صاروا خلفاً ممكنين في الأرض، محكمين فيها، وهو ينهاهم عن الانطلاق في الأرض بالفساد اغتراراً بالقوة والتمكين، وأمامهم العبرة في عاد الغابرين»(١).

فأبى القوم إلا الكفر والعصيان، وأخذوا يشككون القلة المؤمنة في دعوة صالح وفي أنه مرسل من عند الله، وكانت سقطتهم الكبرى قيام بعضهم بعقر الناقة... ناقة الله... الآية البينة التى خلقها الله ابتلاءً وفتنة لهم، ويستوى أن يكون العاقر واحداً أو أكثر، لأن هذا الجرم الآثم لم يرتكب إلا بموافقة القبيلة وبمرأى منها، لذا نسب العمل إليهم جميعاً ﴿**فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** (٧٧)﴾(٢).

فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

- منها أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.
- ومنها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم، فاستحقوه من وجهين: أحدهما الشرط عليهم في قوله: ﴿**وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ** (٦٤)﴾(٣)، وفي آية: ﴿**عَظِيمٍ**﴾(٤)، وفي الأخرى: ﴿**أَلِيمٌ**﴾(٥)، والكل حق. والثاني استعجلهم على ذلك.

- ومنها أنهم كذبوا الرسول الذي قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه وهم يعلمون ذلك علماً جازماً، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم(٦).

عقر الناقة - العتو - استعجال العذاب.. إنه التبجح الذي يصاحب المعصية، ويعبر عن عصيانهم بقوله «عتوا» لإبراز سمة التبجح فيها، وليصور الشعور النفسي المصاحب لها، والذي يعبر عنه كذلك ذلك التحدي باستعجال العذاب والاستهتار بالنذير، ولا يستأني السياق في إعلان الخاتمة، ولا يفصل كذلك ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي**

(١) في ظلال القرآن ٣/١٣١٣.
(٢) سورة الأعراف: [٧٧].
(٣) سورة هود: [٦٤].
(٤) سورة الشعراء: [١٥٦].
(٥) سورة الأعراف: [٧٣].
(٦) ابن كثير: قصص الأنبياء ١٢٩.

دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨)﴾(١)، والرجفة والجثوم جزاء مقابل للعتو والتبجح، فالرجفة يصاحبها الفزع، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك، وما أجدر العاتي أن يرتجف، وما أجدر المعتدي أن يعجز جزاء وفاقاً في المصير، وفي التعبير عن هذا المصير بالتصوير.

ويدعهم السياق على هيئتهم «**جاثمين**»، ليرسم لنا مشهد صالح الذي كذبوه وتحدوه: ﴿**فتولىَّ عنهم، وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحتُ لكم، ولكن لا تحبون الناصحين**﴾ إنه الإشهاد على أمانة التبليغ والنصح والبراءة من المصير الذي جلبوه لأنفسهم بالعتو والتكذيب، وهكذا تطوى صفحة من صحائف المكذبين ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين»(٢).

* * *

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (٥٩)**﴾(٣)، فالآيات هاهنا قيل إشارة إلى الجراد والقمّل والضفادع ونحوها من الآيات التي أرسلت إلى الأمم المتقدمة، فنبه أن ذلك إنما يفعل بمن يفعله وذلك أخس المنازل للمأمورين، فإن الإنسان يتحرى فعل الخير لأحد ثلاثة أشياء: إما أن يتحراه لرغبة أو رهبة، وهو أدنى منزلة، وإما أن يتحراه لطلب محمدة، وإما أن يتحراه للفضيلة، وهي أن يكون ذلك الشيء في نفسه فاضلاً، وذلك أشرف المنازل، فلما كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس رفعهم عن هذه المنزلة، ونبه أنه لا يعمهم بالعذاب، وإن كانت الجهلة منهم كانوا يقولون: ﴿**فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)**﴾(٤).

لذلك نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن طلب الآيات: فعن جابر بن عبد الله قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسْألُوا الآيات فقد سألها قومُ صالح فكانت – يعني الناقة – تردُ من هذا الفج، وتُصْدرُ من هذا الفج فعَتَوْا عن أمرِ ربِّهم فعقروها، وكانت تشرب ماءَهم يوما، ويشربون لبنَها يوما فعقروها، فأخذتهم صيحة أهْمَد الله بها مَنْ تحت أديم السماء منْهم إلا رجلا واحدا كان في حرم الله، فقالوا من هو يا رسول الله؟ قال: أبو رِغال، فلما خَرَج من الحرمَ أصابَه ما أصاب قومَه(٥).

---

(١) سورة الأعراف: [٧٨].

(٢) في ظلال القرآن ٣/١٣١٤.

(٣) سورة الإسراء: [٥٩].

(٤) سورة الأنفال: [٣٢]. – الراغب: المفردات ٤٢.

(٥) ابن كثير: ٣/٢٦٩.

وعلق ابن كثير بقوله: وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم.

والحديث أخرجه أحمد في مسنده: ١٤٠٩٢ بإسناد صحيح ١١/٣٧٠.

والحاكم في المستدرك ٣٢٤٨ – ٣٢٥١ وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي في التلخيص، وقال على شرط البخاري ومسلم.

وأبو رغال اسمه زيد بن خلف كان عبداً لصالح عليه السلام فلما خالف عن أمره لعنه فنزلت به قارعة من السماء. وقبره بين مكة والطائف يرجمه الناس. [لسان العرب ٣/١٦٨٢].

الفصل الرابع

من صور الابتلاء في الأمة الإسلامية

١ - حديث الإفــك

تيقن المنافقون أن القضاء على الإسلام وأهله لا يمكن باستخدام السلاح، فقرروا أن يشنوا حربا دعائية واسعة ضد هذا الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد، وأن يجعلوا شخصية الرسول ﷺ أول هدف لهذه الدعاية، ولما كان المنافقون هم الطابور الخامس في صفوف المسلمين، ولكونهم سكان المدينة كان يمكن لهم الاتصال بالمسلمين واستفزاز مشاعرهم كل حين. تحمل فريضة الدعاية هؤلاء المنافقون، وعلى رأسهم عبد الله بن أبى ابن سلول(١).

من ذلك تقولهم على النبى ﷺ – بعد أن تزوج زينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة – بزعم أن النبي تزوج مطلقة متبناه الذى هو بمثابة ابنه، كما أن هذه هي الزوجة الخامسة، فهو زواج غير صحيح لأن الإسلام لم يكن يسمح بالزواج بأكثر من أربع، وأثرت هذه الدعاية في نفوس كثير من الضعفاء قبل أن تنزل آيات منها: ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ④**﴾(٢).

وبعد انتصار المسلمين في غزوة بني المصطلق وقع خلاف بين أجير لعمر بن الخطاب وأحد الأنصار حاول عبد الله بن أبي أن يستثمره ويشعلها فتنة، ولكن الله أخزاه، وافتضح أمره، وزادت النقمة عليه حتى من أقرب الناس إليه وهو ابنه الذي كان حسن الإسلام حتى عرض على رسول الله ﷺ أن يقتله بيده(٣).

ولكن المنافقين – وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول – لم يرعَوَوْا، ولم يتراجعوا بعد هذا الإخفاق الذريع، فاستمرءوا والتآمر وحرب الدعاية الخسيسة، وكان المقصود بها هذه المرة رسول الله ﷺ في أحب زوجاته إليه **عائشة بنت أبي بكر** رضي الله عنها فكان حديث الإفك، **وخلاصته**(٤):

---

(١) صفي الدين المباركفوري: الرحيق المختوم ٣١٨.

وانظر لعبد الحميد السحيباني: الفتنة وموقف المسلم منها ١٣٧.

(٢) سورة الأحزاب: [٤]، انظر الرحيق المختوم ٣١٨.

وأسباب النزول للواحدي ٢٩٢.

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨٩ – ٢٩٢. وقد فصلنا مكائد المنافقين في بحثنا وسائل أعداء الإسلام في التضليل.

(٤) جاء الحديث مفصلا على لسان عائشة – رضي الله عنها – مفصلا فى أغلب كتب السنة والتاريخ. منها:

البخاري: كتاب الشهادات (٥٢). باب تعديل النساء بعضهن بعضا (١٥)، حديث ٢٦٦١ – فتح الباري ٥/ ٣١٩ – ٣٢٢. =

- أقرع النبي ﷺ بين نسائه – وهو خارج إلى غزوة بني المصطلق، فخرج فيها سهم عائشة، وبعد الانتهاء من الغزوة والدنو من المدينة افتقدت عائشة عقدا لها، فرجعت تبحث عنه، وفي غيبتها رحل الرجال بهودجها، وهم يعتقدون أنها بداخله.

- فلما عثرت على عقدها وعادت إلى الموقع الذي كان فيه هودجها وجدت أن الجيش قد رحل، فأقامت مكانها، وغلبها النعاس، فعثر عليها صفوان بن المعطل السلمي، فاسترجع، وأركبها ناقته، وعاد بها إلى المدينة.

- سنحت الفرصة لعبد الله بن أبي رأس المنافقين ليسجل «نصرا» يعوضه عن إخفاق مؤامرته في الإيقاع بين الأنصار والمهاجرين في غزوة بني المصطلق، فتولى كبر حديث الإفك، وأخذ يشيع أنها «**ما نجت من صفوان ولا نجا صفوان منها**» وكان يقول «**امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها**»[1].

- ظلت عائشة مريضة شهرا وهي لا تعلم ما يدور على ألسنة الناس، ولكنها أحست أنها لم تعد تجد من لطف رسول الله ﷺ ما كانت تجد من قبل، ولم تعلم بحديث الإفك إلا من أم مسطح بن أثاثة أحد المروجين للإفك. أما الآخرون فهم حمنة بنت جحش وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وصاحب القدح المعلى في ذلك: عبد الله بن سلول.

- نزل الخبر على عائشة نزول الصاعقة، وأخذت تبكي ليل نهار حتى أصبحت – على حد قولها: «**لا يرقأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم**».

- وعاش رسول الله ﷺ هذه المحنة في حزن عميق. **ولكن هذا لم يمنعه اتخاذ المواقف الثلاثة الآتية:**

١ – استشار أسامة بن زيد – الحب ابن الحب – وعلى بن أبي طالب، فأجاب الأول أنه لا يعلم عن عائشة إلا خيرا، وشهدت الجارية نفس الشهادة، أما علي فكان جوابه: «لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير».

= وكتاب المغازي (٦٤) - باب حديث الإفك (٣٤)، حديث ٤١٤١ – ٧/ ٤٩٦ – ٤٩٩، وكتاب التفسير (٦٥) باب «لولا إذ سمعتموه...» (٦) حديث ٤٧٥٠ – ٨/ ٣٠٦ – ٣٠٩.

ومسلم: كتاب التوبة (٤٩). باب: حديث الإفك وقبول توبة القاذف. حديث ٤٦ – ٥/٦٢٨ – ٦٣٩، وأحمد: حديث ٢٥٤٩٩ – ١٨/٩ – ١٠٤، والترمذي: كتاب التفسير (٤٨). باب «ومن سورة النور» (٢٥) حديث ٢/٨٠– ٥/ ٣٣٢ – ٣٣٥. وقال: حديث حسن صحيح، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٧ – ٣٠٣، وتاريخ الطبرى ٢/ ٦١٠ – ٦١٩، وانظر طبقات ابن سعد ٨/ ٦٣ – ٩٠.

(١) الزمخشرى: الكشاف ٣/ ٥٢.

وعن جرائم المنافقين في حق النبي ﷺ والإسلام والمسلمين راجع للمؤلف الفصل الأول من بحث (وسائل أعداء الإسلام في التضليل) وعنوان الفصل: (الأصول والجذور).

٢ – وقف الرسول ﷺ على المنبر، وعرض الأمر على المسلمين قائلاً «**من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا، وقد ذكروا رجلا**(١) **ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**» فقام سعد بن معاذ الأنصاري(٢) فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله: إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

فثار سيد الخزرج سعد بن عبادة(٣)، وقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله، ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير(٤)، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان من الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم يخفضهم، حتى سكتوا وسكت(٥).

٣ – ثم وجه النبي ﷺ الحديث صريحا إلى عائشة رضي الله عنها «**إنه قد بلغ عنكِ كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنبٍ فاستغفري الله، وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب، ثم تاب تاب الله عليه**»(٦).

* * *

وما نسب إلى عائشة وصفوان بن المعطل كان إفكا ظاهرا وكذبا بيّنا، وذلك لمجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هذا

---

(١) يقصد صفوان بن المعطل: ويكنى أبا عمرو، أسلم قبل غزوة بنى المصطلق، وشهدها وقيل شهد مع رسول الله ﷺ الخندق والمشاهد كلها، وكان شجاعا فاضلا خيرا بطلا، وفي الحرب كان يكون على ساقة النبي ﷺ. ويقال إنه عاش إلى خلافة معاوية، فغزا الروم، فاندقت ساقه، ثم نزل يطاعن حتى مات، وكان ذلك سنة ثمان وخمسين. [الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة ٢ / ١٨٧].

(٢) وقيل غيره؛ لأن سعد بن معاذ استشهد قبل غزوة بني المصطلق، وقد أورد النووى هذا الخلاف في شرحه لصحيح مسلم ٥ / ٦٣٤.

وسعد بن معاذ هو سيد الأوس، ويكنى أبا عمرو وشهد بدرا باتفاق ورمى بسهم يوم الخندق، فعاش بعد ذلك شهرا حتى حكم فى بنى قريظة وأجيبت دعوته فى ذلك. ويوم جنازته قال النبى ﷺ: اهتز العرش لموت سعد بن معاذ [الإصابة لابن حجر ٢ / ٣٧].

(٣) وسعد بن عبادة سيد الخزرج يكنى أبا ثابت وأبا قيس، شهد العقبة وكان أحد النقباء، كان يقال له «الكامل» لأنه كان يحسن الكتابة بالعربية والعوم والرمى، وكان مشهوراً بالجود، فكان يعشي كل ليلة ثمانين من أهل الصفة. مات قتيلا في حوران من أرض الشام سنة ١٥ هـ [الاستيعاب ٢ / ٤٠ والإصابة ٢ / ٣٠].

(٤) أسيد بن حضير الأنصارى الأشهلي، أسلم قبل سعد بن معاذ على يد مصعب بن عمير، وكان ممن شهد العقبة الثانية وهو من النقباء ليلة العقبة، شهد كل المشاهد مع النبي ﷺ، وكان ممن ثبت معه يوم أحد. وفيها جرح سبع جراحات. وكان من الكملة العقلاء أهل الرأي والشجاعة. ومن أحسن الناس صوتًا بالقرآن. توفي سنة عشرين في خلافة عمر ودفن بالبقيع [الاستيعاب – على هامش الإصابة: ١ / ٥٣ – ٥٥].

(٥) مسلم ٥ / ٦٣٥.

(٦) مسلم ٥ / ٦٣٧.

جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رءوس الأشهاد، بل كان هذا يكون لو قدر خفية مستورا. فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة(١).

ويؤكد هذا أنه لو كان هناك ريبة لكان من الممكن أن يأتي صفوان وحده ويترك عائشة إلى أن يبعثوا في طلبها، أو يقيم قريبا منها إذا خاف أن يتركها وحدها، فلا يراه أحد من الناس إذا رجعوا إليها(٢).

وواقع الحال بهذه الصورة يقطع ببراءة عائشة مما رميت به، ومع ذلك لم يستند إليه رسول الله ﷺ في انتظار بيان السماء؛ **لأن هذا الدليل العملي قد يحتمل من تأويل ذوي النوايا السيئة ما يحتمل**، أما بيان السماء فهو القاطع الذي لا يحتمل تحريفا أو تأويلا.

وظلت عائشة، والنبي ﷺ، والمجتمع الإسلامي في همٍّ دائم وحزن قاس إلى أن نزلت براءة عائشة من السماء في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠)** ﴾(٣).

* * *

لقد جاء حديث الإفك ابتلاء ومحنة حملت من مظاهر المنن والخير غير قليل، وجاء موقف النبي ﷺ ناطقا بمصداقيته في نبوته: لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالا ومجالا، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام، ولا يجد في شأنها قرآنا يقرؤه على الناس. ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجته، وأبطأ الوحي، وطال

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ١٩.

(٢) الصعيدي: القضايا الكبرى ١١.

(٣) سورة النور: [١١ - ٢٠].

الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس «**إني لا أعلم عنها إلا خيرا**» ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب، ومضى شهر بأكمله، والكل يقولون ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر «**يا عائشة، أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله**».

هذا كلامه بوحي ضميره، وهو - كما ترى - كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتبع الظن، ولا يقول ما ليس له به علم. على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلنا براءتها، ومصدراً الحكم المبرم بشرفها وطهارتها. فماذا كان يمنعه - لو أنّ أمر القرآن إليه - أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه، ويذب بها عن عرينه، وينسبها إلى الوحي السماوي، لتنقطع ألسنة المتخرصين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله[1].

فالوحي الإلهي ليس شعورا نفسيا ينبثق من كيان النبي ﷺ، كما أنه ليس شيئًا خاضعا لإرادته أو تطلعاته وأمنياته، إذ لو كان كذلك لكان من السهل عليه أن ينهي هذه المشكلة من يوم ميلادها، ويريح نفسه من ذيولها ونتائجها، ويجعل مما يعتقد من الخير والاستقامة في أهله قرآنا يطمئن به أصحابه المؤمنين، ويسكت الآخرين من أصحاب الفضول، ولكنه لم يفعل لأنه لا يملك ذلك[2].

فالنبي ﷺ لم يخرج بنبوته ورسالته عن كونه بشرا من الناس، فلا ينبغي لمن آمن به أن يتصور أن النبوة قد تجاوزت به حدود البشرية، فينسب إليه من الأمور أو التأثير ما لا يجوز نسبته إلا لله وحده[3].

* * *

وإذا كان حديث الإفك قد أبان عن مصداقية الرسالة والرسول ﷺ، فإنه قد أبان أيضاً عن المعدن الأصيل لمجتمع المسلمين؛ فقد شاركوا النبي ﷺ همومه، ونهض بعض الصحابة يبدون في حماسة استعدادهم لقتل من جاء بالإفك كائنا من كان مركزه ونسبه وقرابته.

ومن الصور الوضيئة في هذا المقام ما يروى أن **أبا أيوب الأنصاري**[4] - رضي الله عنه

(١) د. محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ٢٠ - ٢٤.

(٢) محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية ٣١٠.

(٣) البوطي السابق ٣٠٩.

(٤) أبو أيوب الأنصاري النجاري، واسمه خالد بن زيد بن كليب شهد العقبة وبدرا وما بعدها، ونزل عليه النبي ﷺ لما قدم المدينة، وأخى بينه وبين مصعب بن عمير، وشهد الفتوح. وشهد قتال الخوارج مع علي بن أبي طالب. =

– قال لأم أيوب: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءاً؟ قال: لا. قالت: ولو كنتُ أنا بدل عائشة – رضي الله عنها – ما خنتُ رسول الله ﷺ؛ فعائشة خير مني، وصفوان خير منك[1].

وجاء حديث الإفك ليزيد من كشف سوءات المنافقين، ويبرز مدى خطورتهم، وأنهم لا يتورعون عن استخدام أحط الوسائل وأحقرها لمحاربة الإسلام والنبي ﷺ، ومنها النيل من عرضه، والتشكيك في طهارة أهل بيته.

* * *

وأبان حديث الإفك للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله، ويبين مدى الأخطار التي تحيق بالجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، فهي عندئذ لا تقف عند حد، إنما تمضي صعدا إلى أشرف المقامات، وتتطاول إلى أعلى الهامات، وتعدم الجماعة كل وقاية وكل تحرج وكل حياء[2].

وأبرزت آيات التبرئة خطورة ترويج حديث الإفك، وتأثيم المروجين، وذلك في قوله ﴿ **إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ** (١٥) ﴾ وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام، وعلق مس العذاب العظيم بها:

أحدها: تلقي الإفك بألسنتهم، وذلك أن الرجل كان يلقى الرجل فيقول له ما وراءك؟ فيحدثه بحديث الإفك، حتى شاع وانتشر، فلم يبق بيت ولا نادٍ إلا طار فيه.

والثاني: التكلم بما لا علم لهم به.

والثالث: استصغارهم لذلك، وهو عظيمة من العظائم[3].

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ يهوى بها في النار أبعد مما بين السموات والأرض**»[4].

= ولزم أبو أيوب الجهاد بعد النبي ﷺ. فكان ضمن الحملة التي أرسلها معاوية بقيادة ابنه يزيد لغزو القسطنطينية سنة ٥٢ هـ. ومات ودفن أمام أسوارها إذ لم يتمكن يزيد من فتحها. وقبره في مدينة اسطنبول بتركيا.

[انظر الإصابة١/ ٤٠٥].

(١) تفسير الكشاف ٣/ ٥٣ – والقرطبي ٥/ ٤٥٩٤. وانظر لعبد الحليم العبد اللطيف: حديث الإفك ١٩٠ – ١٩١.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٠٠. (٣) الكشاف ٣/ ٥٤.

(٤) ابن كثير ٦/ ١٩، والحديث أخرجه البخارى في كتاب الرقاق (٨١) باب حفظ اللسان (٢٣). حديث ٦٤٧٧ – ١١/ ٣١٤. ومسلم كتاب الزهد، باب حفظ اللسان ٥/ ٨٣٦.

والترمذي: كتاب الزهد (٣٧) باب فيمن يتكلم بكلمة يضحك بها الناس (١٠) حديث ٢٣١٤ – ٤/ ٥٥٧. وقال حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وابن ماجة: كتاب الفتن (٣٦) باب: كف اللسان في الفتنة (١٢) حديث ٣٩٧٠ – ٣/ ٤٠٥.

ومع ذلك وصفت الآيات حديث الإفك بأنه كان للنبي وآل بيته بل للجماعة المسلمة خيرا لا شرا، والخير – كما يقول القرطبي – حقيقته ما زاد نفعه على ضره، والشر ما زاد ضره على نفعه، وإن خيرا لا شر فيه هو الجنة، وشرا لا خير فيه هو جهنم، **فأما البلاء النازل على الأولياء فهو خير**، لأن ضرره من الألم قليل في الدنيا، وخيره هو الثواب الكثير في الأخرى، فنبه الله تعالى عائشة وأهلها وصفوان إذ الخطاب لهم في قوله ﴿**لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ..**﴾ لرجحان النفع والخير على جانب الشر[1].

ولكن حتى يتحقق هذا الخير يبقى على الجماعة المسلمة – بوعي ناشط وحس إيماني قوي – أن يرفضوا ابتداء هذه القالة المنحرفة متحلين بالحذر وحسن الظن، وهذا ما يدل عليه هذا العتاب الإلهي الكريم ﴿**لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ** ﴿١٢﴾﴾[2]، إنه توجيه في هيئة عتاب من الله تعالى لأهل الإيمان به فيما وقع في أنفسهم من إرجاف من أرجف في أمر عائشة بما أرجف به. يقول لهم تعالى ذكره: هلا أيها الناس إذ سمعتم ما قال أهل الإفك في عائشة ظن المؤمنون منكم والمؤمنات بأنفسهم خيرا! يقول: ظننتم بمن قرف بذلك منكم خيرا، ولم تظنوا به أنه أتى الفاحشة. وقال «**بأنفسهم**» لأن أهل الإسلام كلهم بمنزلة نفس واحدة، لأنهم أهل ملة واحد[3].

* * *

هذا، وقد ذكر الإمام النووي ثلاثا وخمسين فائدة مستخلصة من حديث الإفك، نقتطف منها ما يأتي:

– جواز خروج المرأة لحاجة الإنسان بغير إذن الزوج، وهذا من الأمور المستثناة.

– إعانة الملهوف، وعون المنقطع، وإنقاذ الضائع، وإكرام ذوي الأقدار.

– حسن الأدب مع الأجنبيات لا سيما في الخلوة بهن عند الضرورة في برية أو غيرها.

– استحباب الاسترجاع عند المصائب سواء كانت في الدين أو الدنيا، وسواء كانت في نفسه، أو من يعز عليه.

– استحباب أن يُستَر عن الإنسان ما يقال فيه إذا لم يكن في ذكره فائدة.

– استحباب ملاطفة الرجل زوجته، وحسن المعاشرة.

---

(١) القرطبي ٤٥٩٠.
(٢) سورة النور: [١٢].
(٣) تفسير الطبري ٨/ ١٢٨.
وانظر: العبد اللطيف: حديث الإفك ٢٤٥ – ٢٤٧.

- فضيلة أهل بدر، والذب عنهم.
- الزوجة لا تذهب إلى بيت أبويها إلا بإذن زوجها.
- استحباب مشاورة الرجل بطانته وأهله وأصدقاءه فيما ينوبه من الأمور.
- جواز البحث والسؤال عن الأمور المسموعة عمن له به تعلق، أما غيره فهو منهي عنه، وهو تجسس وفضول.
- المبادرة إلى قطع الفتن والخصومات والمنازعات، وتسكين الغضب.
- قبول التوبة والحث عليها.
- استحباب المبادرة بتبشير من تجددت له نعمة ظاهرة، أو اندفعت عنه بلية ظاهرة.
- تجديد شكر الله تعالى عند تجدد النعم.
- استحباب صلة الأرحام وإن كانوا مسيئين.
- التثبيت في الشهادة.
- إكرام المحبوب بمراعاة أصحابه، ومن خدمه أو أطاعه[1].

* * *

وهذه الأحكام أو هذه الفوائد - وغيرها كثير - تقطع بصدق حكمه تعالى بأن «حديث الإفك» جاء - من حيث لم يرد أعداء الإسلام - «**خيراً لا شراً**» بكل المقاييس: خيراً للنبي ﷺ، وخيراً لعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، وخيرا لجماعة المسلمين في المجتمع المدني، وخيراً للمسلمين على مدار العصور: ينظرون إليه، ويستلهمون العبر والدروس والفوائد في مجال النفس والتعامل وبناء العلائق الاجتماعية، ومواجهة الأزمات والشدائد، وخصوصاً تلك التي تصيب المسلم في أعز ما يعتز به، ويحرص على صيانته وفدائه..

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٥/ ٦٤١ - ٦٤٤.

٢ - ابتلاء الأمة بالجوع والطاعون

أ - عـام الرمـادة

في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان عام ١٨هـ، هو عام المجاعة والقحط والبلاء فى جزيرة العرب، وسمي عام المجاعة هذا بعام الرمادة؛ لأن «الرمادة» لغة: هي الهلاك، وفي هذا العام هلك من الأموال والناس الكثير والكثير.

وفي لسان العرب يقال: رمده وأرمده إذا أهلكه وصيره كالرماد. ورمِد وأرمَد: إذا هلك، والمعنى الأصلي للرماد في اللغة هو «دُقاق الفحم من حُراقة النار وما هبا من الجمر فصار دقاقا، والطائفة منه رمادة»[١].

فإطلاق اسم «الرمادة» على عام النكبة سنة ١٨هـ، إنما هو إطلاق يتفق مع الواقع:

- فهو عام الهلاك، حتى قيل هلك من الناس ثلثاهم ولم يبق منهم إلا الثلث.
- وهو عام انقطع فيه المطر تماما فاسودت الأرض وصارت في لون رماد الفحم من انعدام الماء وحرارة الشمس، فخلت تماما من الشجر والعشب.
- وفيه هلكت الماشية، وجاع الناس، وبلغ بهم الجوع حتى استفّوا الرمة (أي كانوا يحرقون جلد الحيوان وعظمه البالي ويدقونه ويستفونه) وحفروا أنفاق اليرابيع والفئران يخرجون ما فيها ويأكلونه.
- وفيه كلحت وجوه العرب واسودت فهي في لون الرماد من الجوع.
- وفيه كانت الريح تسفي بشدة ترابا أسود كالرماد.

وفي هذا العام - كما جاء في تاريخ الطبري - جعل الوحش يأوي إلى الإنس، وجعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها وإنه لمقْفِر[٢].

* * *

كتب العقاد في «عبقرية عمر»:

إن هذا الرجل لم تواجهه في ولاياته الواسعة صعوبة أكبر منه، وأحوج إلى قدرة أعلى من قدرته، أو هيبة ودراية أجلّ ما كان له من هيبة ودراية، فإذا عرضت الصعوبة الطارئة فهناك الحزم اللازم لمواجهتها، والحيلة الصالحة لتدبيرها كأنما كان لها على استعداد، وكأنما عاش حياته كلها يتمرس بهذه الأمور، وكان اضطلاعه بتفريج الأزمات

---

(١) انظر: لسان العرب ٣/١٧٢٧، والقاموس المحيط ٣٦٢.

(٢) تاريخ الطبري ٤/٩٨.

كاضطلاعه بتدبير الحاجات إلى التعمير والتنظيم»[1].

وبهذه الآليات من حزم وعزم وقدرة على التدبير ومواجهة المشكلات والنوازل استطاع عمر أن يواجه نكبة الرمادة التي نزلت بالمسلمين في جزيرة العرب، ولم يكن لها من قبل شبيه.

فبادر بإرسال كتب الاستغاثة والاستمداد إلى ولاته في الأمصار، وهي تشبه البرقيات في عصرنا لما تتسم به من طوابع السرعة والإيجاز والمباشرية، زيادة على توهج الشعور؛ فالمجال ليس مجال شرح وتفصيل ومقدمات طوال وعرض بلاغي لأن المجاعة المهلكة لا تسمح بالاتساع لمثل ذلك، والوقت في هذا الحال عزيز عزيز.

كتب إلى عمرو بن العاص والي مصر:

«بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاصي: سلام عليك. أما بعد:

أفتراني هالكا ومَنْ قِبَلي، وتعيش أنتَ ومن قِبَلك؟ فياغوثاه ياغوثاه ياغوثا»[2].

* * *

وكتب إلى معاوية واليه على الشام:

«إذا جاءك كتابي هذا فابعث إلينا من الطعام بما يَصْلح مَنْ قِبَلَنا فإنهم قد هلكوا إلا أن يرحمهم الله»[3].

وبعث بمثل ذلك إلى سعد بن أبي وقاص في العراق كما يحكي ابن سعد في الطبقات الكبرى[4].

ونلاحظ أن رسالته الأولى إلى عمرو بن العاص تتسم بالشدة والعنف، فهو «العاصي ابن العاصي»، وكذلك لأنها جاءت في صورة أسلوب إنشائي استفهامي غرضه البلاغي التوبيخ والتقريع، مع أن عمرو بن العاص لم يرتكب ما يوبخ عليه ويقرَّع، وقد يفسر ذلك بأن عمرَ كتب هذه الرسالة تحت ضغط حزن ساحق وهو يرى المسلمين يتساقطون صرعى من شدة الجوع، وهو يعلم أن مصر من أخصب البلاد المفتوحة إن لم تكن أخصبها وأكثرها خيراً على الإطلاق؛ فقد وصفها له عمرو بن العاص في أحد كتبه التي بعث بها إليه بأنها: «... قرية غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر، يكتنفها جبل أغبر، ورمل أعفر، يخط وسطها نيل مبارك الغُدُوات، ميمون الروحات...».

---

(١) العقاد: عبقرية عمر ١٥٧ – ١٥٨.

(٢) طبقات ابن سعد ٣/٢٤٣.

(٣) جمهرة رسائل العرب ١/١٩١.

(٤) السابق: ٣٤٥/٢٤٥.

وفي هذه الرسالة يقول: « .. فبينما مصر - يا أمير المؤمنين - لؤلؤة بيضاء، إذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة رقشاء، فتبارك الخالق لما يشاء.... »[1].

وبلغ عمر أن عمرو بن العاص زادت بمصر ثروته، وفشت له فاشية « من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد .. ».

ويسأله عمر رضي الله عنه عن أصل هذا المال ومصدر هذه الثروة فيجيبه عمرو « .. وإني أُعْلِم أمير المؤمنين أني ببلد السعر فيه رخيص، وأني أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله... »[2].

فبلد هذا شأنه: خصوبة في الأرض التي يرويها نيل « مبارك الغُدُوات، ميمون الروحات » ووفرة في الزرع والثمر، ورواج في التجارة، وسعة في العيش، ورخص في الأسعار .. كل أولئك يجعل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يتطلع أن يكون هو المصدر الرئيسي للطعام حتي تنفرج الأزمة وتنكشف الغمة، ويري في بطء الوالي عن إرسال الأمداد للمدينة - حتى لو لم يطلب منه - عصيانا وأي عصيان.

* * *

وجاءت استجابة الولاة سريعة عملية، وكتب إليه عمرو بن العاص من مصر:

« بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: أتاك الغوث فلبِّثْ لبِّث (أي اصبر وانتظر) لأبعثن إليك بعيرٍ أولها عندك وآخرها عندي »[3].

وكان أول من قدم عليه بمدد أبو عبيدة بن الجراح، فقد قدم عليه بأربعة آلاف راحلة (ناقة) محملةً بالطعام، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة[4].

وبعث إليه عمرو بن العاص في البحر بعشرين سفينة تحمل الدقيق والودك (الدسم والسمن). وبعث إليه في البر بألف بعيرٍ تحمل الدقيق. وبعث إليه كذلك بخمسة آلاف كساء.

وبعث إليه معاوية بن أبي سفيان بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق، وبعث إليه بثلاثة آلاف عباءة.

وبعث إليه والي الكوفة بألفي بعير تحمل الدقيق[5].

---

(١) السابق ١/٢٠١.

(٢) السابق نفس الصفحة.

(٣) ابن سعد ٣/٢٤٣.

(٤) تاريخ الطبري ٣/١٠٠.

(٥) ابن سعد ٣/٢٥٠.

وكان أكثر الناس تضررا بالمجاعة؛ الأعراب سكان الصحراء الذين يعيشون على المطر، فقصد المدينة آلاف من الأعراب الذين يعانون القحط والجوع، فوكل عمر رضي الله عنه بعض الصحابة بالطبخ ومد الموائد لهم وإطعامهم، وصار العدد يزيد مع الأيام على مدى تسعة أشهر، وبلغ من تعشي عند عمر عشرة آلاف. أما العيالات الذين لا يأتون والمرضي والصبيان (الذين يحمل إليهم الطعام في مقارهم) فبلغوا خمسين آلفا(١).

ويذكر ابن سعد في الطبقات: أن عمر كان يصنع الطعام وينادي مناديه: من أراد أن يحضر طعاماً فيأكل فليفعل، ومن أحب أن يأخذ ما يكفيه وأهله فليأت فليأخذه(٢).

وكان عمر يجتمع كل مساء مع القائمين علي أمر إطعام أهل المدينة ومن نزل بها، ونزل بما حولها من الأعراب، فيخبرونه بكل ما كانوا فيه(٣).

* * *

وكانت وطأة المجاعة – كما ذكرنا – أشد وأنكى على الذين يعيشون في غير المدينة من مناطق الجزيرة العربية، وخصوصاً أطرافها. وكان عمر – كما ذكرنا – قد أرسل إلى ولاته يستمدهم الطعام، وكان يعلم أن توجه هذه الأمداد ونزولها بالمدينة ثم انطلاقها إلى الأطراف لتوزيعها سيحمله من المشاق الكثير والكثير؛ لذلك وجه رسله لاستقبال مدد سعد بن أبي وقاص بأفواه العراق، فجعلوا ينحرون الجُزُر (الإبل) ويطعمون الدقيق ويكسون الناس في هذه المناطق العَبَاء حتى رفع الله ذلك عن المسلمين(٤).

وأرسل رسله حيث التقت قوافل عمرو بن العاص البرية بأفواه الشام، فعدل بها رسله يمينا وشمالاً ينحرون الجزر، ويطعمون الدقيق، ويكسون العباء(٥).

واتخذ من مدينة الجار (وهي مدينة تقع على ساحل البحر الأحمر بينها وبين المدينة يوم وليلة) مركزاً من مراكز التوزيع، حيث تولى رسوله استقبال سفن عمرو بن العاص التي أرسلها محملة بالأقوات والمؤن من مصر.. وأخذ يوزع الطعام من السفن على أهل تهامة، ومن ينزلون ما بين مكة والمدينة(٦).

* * *

وكان عمر رضي الله عنه يوصي رسله وعماله بما يجب أن يفعلوه ويقولوه ويوجهوا إليه من أصابهم القحط والجوع.

فيروي أنه عند قدوم أول الطعام وصّى رسوله بما يأتي:

---

(١) ابن سعد ٣/٢٥٢.
(٢) السابق ٣/٢٤٤.
(٣) السابق ٣/٢٥٢.
(٤) السابق ٣/٢٤٥.
(٥) السابق ٣/٢٤٤.
(٦) انظر ابن سعد ٣/٢٤٤ – ٢٤٥.

١ – أن يعترض للعير (قافلة الطعام) فيميلها إلى أهل البادية .
٢ – أن يتخذ أهل البادية من الظروف (أكياس الطعام بعد تفريغها) لُحُفا يلبسونها .
٣ – أن ينحر لهم الإبل فيأكلوا ما شاءوا من لحومها، ويدخروا ما شاءوا من دهونها .
٤ – أن يصنعوا من الدقيق ما شاءوا، ويدخروا منه كذلك(١) .

* * *

وكان عمر في هذا العام حريصاً على أن يعطي كل ذي حق حقه، ويمنح العاملين من بيت المال مقابل ما يقومون به من عمل دون نظر إلى مدى احتياجهم للمال، وذلك تأسياً برسول الله ﷺ . ومن ذلك أن أبا عبيدة بن الجراح قدم على عمر – كما ذكرنا – في أربع آلاف راحلة من طعام، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة، فلما فرغ ورجع إليه أمر له بأربعة آلاف درهم، فقال أبو عبيدة « لا حاجة لي فيها يا أمير المؤمنين إنما أردت الله وما قبَلَه، فلا تُدْخل عليَّ الدنيا » . فقال عمر رضي الله عنه « خذها فلا بأس بذلك إذ لم تطلبه » فأبى، فقال عمر « خذها فإني قد وليت لرسول الله ﷺ مثل هذا، فقال لي مثل ما قلت لك، فقلتُ له كما قلت لي فأعطاني » فقبل أبو عبيدة، وانصرف إلي عمله(٢) .

* * *

وفي عام الرمادة أخّر عمر الصدقة، أي لم يجمع الزكاة من الناس، فلما أمطرت السماء، وأذهب الله عن الأمة المحْل والجدب أمر سعاته في العام التالي أن يأخذوا عقالين (أي زكاة عامين) فيقسموا عقالاً بين المحتاجين من أهل الناحية، ويقدموا على عمر بعقال(٣) .

* * *

وبعد أن أتى الله بالفرج، وأمطرت السماء خشي عمر أن يستمرىء الأعراب الذين نزلوا بالمدينة وما حولها حياة المدر، ويركنوا إلى الدعة والاسترخاء، فعمل على إخراجهم إلى منازلهم الأولى في البادية، وأعطاهم ما يكفيهم وما يحملون عليه، وكان يشرف على ذلك بنفسه(٤) .

* * *

وعاش عمر رضي الله عنه عام الرمادة حزينا مهموماً، على قوة عزمه وحزمه وصبره

---

(١) انظر ابن سعد ٣ /٢٤٣ – وتاريخ الطبري ٤ /١٠٠ .
(٢) تاريخ الطبري ٤ /١٠٠ .
(٣) ابن سعد ٣ /٢٦٠ .
(٤) انظر السابق ٣ /٢٥٢، ٢٦٢ .

وقوة إرادته، حتى قال خادمه أسلم «كنا نقول لو لم يرفع الله سبحانه وتعالى المَحْل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت همًّا بأمر المسلمين»[1].

وكان عمر يعلم علم اليقين أهمية التقوى وشحْن المسلمين بالطاقة الروحية التي تستمد من الدعاء والاستغفار وطاعة الله ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾[2] فكان دائم الدعاء، وتذكير الناس بالله.

ومن خطبه في هذا العام «أيها الناس استغفروا ربكم إنه كان غفارا، اللهم إني استغفرك وأتوب إليك، اللهم أنت الراعي، لا تهمل الضالة، ولا تدع الكسيرة بمضيعة. اللهم قد ضرع الصغير، ورق الكبير، وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم أغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون...»[3].

ومن خطبة كذلك «أيها الناس اتقوا الله في أنفسكم، وفيما غاب عن الناس من أمركم، فقد ابتليت بكم، وابتليتم بي، فما أدري: ألسَخْطة علي دونكم أو عليكم دوني، أو قد عممتني وعمتكم. فهلموا فلْندْعُ الله يصلح قلوبنا وأن يرحمنا، وأن يرفع عنا المَحْل[4].

أيها الناس إني أخشى أن تكون سخْطة عمتنا جميعاً، فاعتبروا ربكم، وانزعوا وتوبوا إليه، وأحدثوا خيراً[5].

* * *

ومن أهم عوامل التوفيق في التصدي لهذه النكبة والتغلب عليها أن عمر رضي الله عنه – كما ذكر الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله – كان «القدوة المثلى» للناس في كل الأمور، فنزل بعيشه إلى مستوى حياة الفقراء الذين لم يكونوا يجدون إلا مائدته يجلسون إليها مع الألوف الجائعين لينالوا ما يُبقى عليهم الحياة، فكان يأكل معهم، ولا يرضى أن يتناول طعامه في بيته، حتى لا يظن أحد أنه يؤثر نفسه بشيء لا يناله ذو الفاقة من قومه. وقد حقق بتصرفه هذا غرضين جليلين:

أولهما: الشعور بألم الناس شعورا يدفعه إلى مضاعفة الجهد في العناية بهم، والعمل لدفع الضر عنهم.

وآخرهما: طمأنينة السواد إلى أن أمير المؤمنين يشاركهم في بأسائهم وضرائهم، فلا

(١) ابن الجوزي: مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ٧١.
(٢) سورة الطلاق: آخر الآية ٢ وأول الآية ٣.
(٣) العقد الفريد ٤/٦٥.
(٤) المَحْل: الجدب.
(٥) ابن سعد ٤/٢٥٩.

تثور نفوسهم، بل يظلون راضين بكل ما يصيبهم؛ لأن أكبر رجل في الدولة يشاركهم فيه. وقد بلغ عمر من هذين الغرضين خير ما يبلغه حاكم في أية أمة من الأمم[1].

وبهذه القدوة كان يُلزم أهله، فكان إذا أراد أن ينهي الناس عن شيء تقدم إلى أهله فقال «لا أعلمن أن أحدا وقع في شيء مما نهيت عنه إلا أضعفت له العقوبة[2].

وفي عام الرمادة حرم على نفسه السمن واللحم. قال خادمه «أسلم».. كان يأكل الزيت، فقال: يا أسلم، اكسر عني حرّه بالنار. فكنت أطبخه له فيأكله فَيتقرْقَر بطنه عنه، فيقول: تقرقر، لا والله لا تأكله (السمن) حتى يأكله الناس»[3].

قال عياض بن خليفة: رأيت عمر عام الرمادة وهو أسود اللون، ولقد كان - من قبل - أبيض. فيقال: مم ذا؟ فيقول: كان رجلاً عربيا، وكان يأكل السمن واللبن، فلما أمحل الناس حُرِمَهُما، فأكل الزيت حتى غير لونه»[4].

وبلغ من شدته على نفسه أن الرجل من عامة الناس كان يرفض دعوته لمشاركته في الطعام لخشونته. ومما يروي في هذا المقام أن حفص بن أبي العاص كان يحضر طعام عمر، فكان لا يأكل، فقال له عمر: ما يمنعك من طعامنا؟ قال: إن طعامك جَشِب (خشن) غليظ، وإني راجع إلى طعام لين قد صنع لي فأصيب منه.

قال عمر: أتراني أعجز أن آمر بشاة، فيلقى عنها شعرها وآمر بدقيق فينخل في خرقة، ثم آمر به فيخبز خبزا رقاقا، وآمر بصاع من زبيب فيقذف في سُعْن (قربة أو إناء) ثم يصب عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال؟

فقال حفص: إني لأراك عالما بطيب العيش؟

قال عمر: أجل، والذي نفسي بيده لولا أن تنتقض حسناتي لشاركتكم في لين عيشكم»[5].

ومن شدته على نفسه وشعوره الحاد بالحزن لما أصاب المسلمين في عهده، ما ترويه بعض نسائه من أنه «ما قرب امرأة هذا العام حتى أحيا الناس»[6] أي نزل عليهم الحيا وهو المطر، وبه انفرجت الأزمة.

وما يقال عن طعامه يقال عن ملبسه: فعمر الذي كان يوزع الثياب والعَبَاء على الناس أيام الرمادة كان ثوبه - كما يروى السائب بن يزيد - إزارا فيه ست عشرة رقعة[7]. ويقول عبد الله بن أبي طلحة: رأيته وقد رقع بين كتفيه برقاع ثلاث لبّد

(١) د. محمد حسين هيكل: الفاروق عمر ١/٢٩٣.
(٢) ابن سعد ٣/٢١٧.
(٣) السابق ٣/٢٤٨. وابن الجوزي: المناقب ١٣٩.
(٤) ابن سعد ٣/٢٦٢.
(٥) ابن سعد ٣/٢٠٣.
(٦) السابق ٣/٢٥٠.
(٧) السابق ٣/٢٥٦.

بعضها فوق بعض[١].

* * *

وفي كتابه القيم عن «عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة» يرى الدكتور سليمان الطماوي أن القدوة الطيبة إذا كانت لازمة في كل زمان فإن عمر بفراسته قد أدرك أن الدولة الإسلامية الناشئة أحوج ما تكون إليها؛ فالإسلام – وإن يكن عالميا – إلا أنه نزل على أمة تمتاز بخصائص معينة أبرزها البساطة والتقشف والبعد عن الانغماس في الترف المادي، ولا يكاد أحد أفرادها يطلب إلا الكفاف.

هذه الأمة مكلفة بأن تحمل رسالة الإسلام إلى العالم أجمع ومقدرتها على أداء الرسالة تتوقف أولا وقبل كل شيء على المحافظة على خصائصها الذاتية وأهمها عدم الانغماس في شهوات الحياة المقبلة. فما العاصم من هذا الانحراف وكنوز كسرى وخزائن قيصر توشك أن تكون غنيمة خالصة لهؤلاء الحفاة العراة؟

هل يجدي في ذلك العظات؟ أم يكون المانع من الانحراف هو القدوة الحسنة؟ وأن يجعل عمر الخليفة ورأس الدولة الذي تتجه إليه الأبصار من نفسه علما حيا على القيم الإسلامية الخالصة؟

الحق أن القدوة الحسنة لم يكن لها بديل في تلك الظروف، ومن هنا يشتد إيماننا كلما تعمقنا حياة عمر أن تقشفه رضي الله عنه وزهده في الدنيا لم يكن مجرد عبادة، ولكنه كان سياسة إدارية أدرك عمر بفراسته حاجة الدولة الوليدة إليها[٢].

* * *

ويرى العقاد في «عبقرية عمر» أن الخلق الذي ألزم عمر حياة الشظف إنما هو خلق قوي يروض صاحبه على ما يريد، وليس بخلق ضعيف يجعل من التصرف والتكليف إجفال العجز والرهبة والوسواس[٣].

ويعلل العقاد هذا الخلق بتعليلات متعددة:

أولها: طبيعة الجندي: وهي طبيعة عمر: فهو يعلم أن الله سريع الحساب، وأن الله رحيم، ولكن الجندي القوي إذا وقف بين يدي مولاه جعل تعويله علي الوفاء بالأمر، وقضاء الواجب في أدق تفاصيله، ولم يجعل مُعَوَّله الوحيد على طلب الرحمة، والصفح عن الخطيئة، فإن جاءه الصفح من مولاه فليس هذا بمعفيه أمام نفسه من

---

(١) السابق ٣/٢٦٦.

(٢) د. سليمان الطماوي: عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة ٦١ – ٦٢.

(٣) العقاد: عبقرية عمر ١٦٨.

استقصاء الحساب ولو جار عليها. فأكرم لطبيعته الجادة القوية أن يجور على نفسه من أن يترخص في إعطائها، ثم يتعرض للصفح والغفران(١).

* * *

وكان وفاؤه لحق الصداقة كوفائه لحق الله سببا من أسباب هذا الشظف الذي عاش عليه بعد النبي ﷺ وخليفته الأول، فقد أبى له وفاؤه أن يعيش خيراً مما عاشا، وأن يستبيح - وقد صار الأمر إليه حظا لم يستبيحاه(٢).

ثم كانت رغبته في إقامة الحجة على ولاته وعماله سبباً آخر من أسباب شظفه وقناعته بالقليل فقد يستحي أحدهم أن يخون ليغْنَى، وخليفته قانع لا يطمع في أكثر من الكفاف(٣).

* * *

وبذلك التقت - في عمر رضي الله عنه - محاسن الذات ومكرماتها قولاً وفعلا، بحسن التدبير والتخطيط. ووراء كل أولئك إيمان بالله لا يضعف، وثقة بالله لا حدود لها، ومعايشة حقيقية صادقة للأمة في آلامها وآمالها، وكل أولئك يثمر النجاح والفلاح والتوفيق والنصر الفائق المبين.

وتلقت الأمة المحنة متدرعة بالصبر، عائذة بالتقوى، فلم يهتز إيمانها، ولم تفقد يقينها وثقتها بالله، فاجتازت هذا الابتلاء بتوفيق ونجاح بعد أن منحها مزيداً من القوة والصقل والقدرة واليقين.

---

(١) العقاد: السابق ١٦٩.
(٢) العقاد: السابق نفسها.
(٣) العقاد: السابق ١٧٠. وانظر كذلك ١١٥ - ١١٨.

ب – طاعون عمواس[١]

ينقل لنا الطبري في تاريخه أن طاعون عمواس وقع في سنة سبع عشرة من الهجرة[٢].

وفي رواية أخرى أنه وقع سنة ثماني عشرة[٣]، وبلغ عدد الذين ماتوا بالطاعون من المسلمين خمسة وعشرين ألفا[٤].

وممن مات في هذا الطاعون أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وابنه عبد الرحمن ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعتبة بن سهيل وكثير من أشراف الناس[٥].

* * *

ويروى عن عبد الله بن عباس: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ[٦] لقيه أمراء الأجناد – أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه – فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام. قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع في أرض الشام.

فاختلفوا: فقال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال ارتفعوا عني. ثم قال :ادعوا لي الأنصار، فدعوتهم، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، ثم قال: ادعُ لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس، ولا تقدمهم على هذا الوباء. فنادى عمر في الناس: إني مُصَبِّحٌ على ظهر، فأصبحوا عليه[٧]، قال أبو عبيدة بن الجراح أفرار من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة!![٨] – نعم

---

(١) الطاعون داء وبائي سببه ميكروب يصيب الفئران، وتنقله البراغيث إلى فئران أخرى وإلى الإنسان [المعجم الوجيز ٣٩١].

(٢) الطبري ٤ /٥٧، ٦٢.

(٣) الطبري ٤ / ٦٠ (وسنعود إلى هذه المسألة).

(٤) انظر: أسد الغابة ٦ /٢٠٥ – ٢٠٦.

(٥) انظر: طبقات ابن سعد ٣ /٣٨٢ – الطبري ٤ / ٦٠. فتوح البلدان للبلاذري ١٤٥.

(٦) سرغ: موضع قرب الشام بين المغيثة وتبوك: القاموس المحيط ١٠١٢.

(٧) أي مسافر راكب على ظهر الراحلة راجع إلى وطني، فأصبحوا عليه، وتأهبوا له (النووي على مسلم ٥ /٦٩).

(٨) لو غيرك قالها.. لعاقبته، أو لكان أولى منك بذلك، أو لم أتعجب منه. ولكني أتعجب منك مع علمك وفضلك كيف تقول هذا، ويحتمل أن يكون المحذوف لأدبته، أو هي للتمني فلا يحتاج إلى جواب، والمعنى: أن غيرك ممن لا فهم له إذا قال ذلك لعذر [فتح الباري: ١٠ /١٩٦].

نفـر من قـدر الله إلى قـدر الله. أرأيت إن كـانـت لك إبل هبطت واديا له عـدوتان[١] إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟

قال (ابن عباس): فجاء عبد الرحمن بن عوف – وكان متغيباً في بعض حاجته – فقـال: إنَّ عندي في هذا علمـا، سـمـعت رسـول الله – ﷺ – يقـول: **إذا سمعتم به (الطاعون) بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه.**

قال: فحمد الله عمر، ثم انصرف[٢].

وقد جمع النبي ﷺ للأمة في نهيه عن الدخول إلى الأرض التي بها الطاعون ونهيه عن الخروج منها بعد وقوعه كمال التحرز منه، فإن في الدخول في الأرض التي هو بها تعرضا للبلاء وموافاة له في محل سلطانه وإعانة للإنسان على نفسه وهذا مخالف للشرع والعقل[٣].

ومن معاني نهيه عن الخروج من بلد الطاعون «حمل النفوس على الثقة بالله والتوكل عليه والصبر على أقضيته، والرضى بها[٤]!

وعن زمن وقوع الطاعون بعمـواس هناك أكثر من رواية .. ففي رواية لابن إسحق ينقلها الطبري أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام غازيا في سنة سبع عشرة حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد، فأخبروه أن الأرض سقيمة، فرجع بالناس إلى المدينة[٥].

ولكنه ينقل رواية أخرى عن ابن إسحاق بأن الطاعون كان سنة ثماني عشرة وفيه توفي أبو عبيدة بن الجراح – وهو أمير الناس، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعتبة بن سهيل بن عمرو، وأشراف الناس[٦].

وتبدو الرواية الأخيرة في الظاهر أنها أرجح الروايتين[٧] فالمعروف أن مجاعة الرمادة كانت في سنة ثماني عشرة للهجرة وفي هذه السنة كتب عمر – رضي الله عنه – إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم، فكان أو ل من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح في أربعة آلاف راحلة من طعام، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة،

---

(١) العدوة: المكان المرتفع من الوادي.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الطب (٧٦) باب ما يذكر في الطاعون (٣٠) فتح الباري ١٠/١٨٩.
ومسلم: كتاب السلام: باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها. النووي ٥/٦٩، وانظر: الطبري ٤/٥٨.

(٣) ابن القيم: الطب النبوي ٤٢.

(٤) ابن القيم: السابق ٤٣.

(٥) الطبري: ٤/٥٧.

(٦) السابق ٤/٦٠.

(٧) طبقات ابن سعد ٣/٣٨٢ – وأسد الغابة ٦/٢٠٥ – ٢٠٦.

فلما فرغ ورجع إليه أمر له بأربعة آلاف درهم...»[1].

وهناك إجماع على أن أبا عبيدة مات في طاعون عمواس، ومن ثم لا يعقل أن يكون الطاعون قد نزل بعمواس سنة سبع عشرة.

ومن ناحية أخرى يكاد ينعقد الإجماع على أن عام الرمادة كان سنة ثماني عشرة للهجرة، واستمر تسعة أشهر، ولم يذكر واحد من المؤرخين أن مجاعة الرمادة كانت مزامنة لطاعون عمواس فلم يبق أمامنا إلا احتمال من احتمالين:

الأول: أن يكون طاعون عمواس وقع قبل عام الرمادة أي سنة ست عشرة أو سبع عشرة مثلا، وهو احتمال مرفوض للسبب الذي ذكرناه آنفا وهو حضور أبي عبيدة أمير جند الشام بالمدد إلى المدينة سنة ثماني عشرة.

أن يكون طاعون عمواس قدو قع عام الرمادة بعد أن قام أبو عبيدة – بأمر من عمر – بتوزيع ما أحضره من الشام من طعام ومؤن على الناس حول المدينة ثم عاد إلى عمواس، ثم كانت رحلة عمر بعده مباشرة أي في الشهور الأخيرة من عام ١٨، ولقاؤه مع أبي عبيدة وقادة الأجناد خارج عمواس في سرغ وامتناعه هو ومن معه عن دخول المدينة. وهذا ما لم يقل به أحد من المؤرخين بهذا التحديد.

وللاقتراب من التاريخ الصحيح لهذا الطاعون نقطع بأنه لم يكن سنة سبع عشرة أو ثماني عشرة للاعتبارات التي ذكرناها آنفا. وعلينا أن نبحث عن تاريخ آخر في ضوء الرحلات التي قام بها عمر – رضي الله عنه – إلى الشام في خلافته.

كان أول خروجه من المدينة إلى الشام سنة ١٦هـ، ففي هذا العام افتتحت حلب وأنطاكية صلحا، وفرغ سعد بن أبي وقاص من المدائن وجلولاء، وحاصر أبو عبيدة إيلياء (بيت المقدس) فطلب أهلها من أبي عبيدة الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام من أداء الفدية والخراج، والدخول فيما دخل فيه نظراؤهم على أن المتولي للعقد لهم عمر بن الخطاب نفسه، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك، فقدم عمر منزل الجابية من دمشق، ثم صار إلى إيلياء فأنفذ صلح أهلها، وكتب لهم به، وكان فتح إيلياء في سنة سبع عشرة.. وبعدها رجع عمر إلى المدينة[2].

وكتب عمر لأهل إيلياء عهداً طويلاً يؤمّنهم فيه على أنفسهم وأموالهم ويحدد فيه

---

(١) الطبري ٤/١٠٠.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ١٤٤ – ١٤٥، هذا وأورد الطبري رواية أن إيلياء افتتحت على يدي عمر في ربيع الآخر سنة ١٦ هـ [الطبري ٣/٦١٠].

ما لهم وما عليهم[1].

* * *

عاد عمر إلى المدينة، ومكث بها طيلة عام ١٧ للهجرة، وفي هذا العام افتتح أبو موسى الأشعري الأهواز، وكانت موقعة جلولاء، وقتل المشركين مقتلة عظيمة.

وفي السنة الثامنة عشرة افتتحت حران والموصل والسوس وتستر، وافتتحت الرها وسميساط ونصيبين وجنديْ سابور[2]، مع أن عمر كان قد طلب من قواده ألا يقاتلوا هذا العام إلا إذا أُرغموا على القتال.. لأن هذه السنة كانت سنة الرمادة في جزيرة العرب. سنة الهلاك والجوع والقحط وفيها حضر أبو عبيدة من الشام إلى المدينة ومعه مدد من أربعة آلاف بعير محملة بالطعام، مما يدل على أن الطاعون لم يكن قد استشرى في هذه البلاد.

* * *

وحتى يتفق تاريخ خروج عمر للمرة الثانية إلى الشام نرى أن الاحتمال الأصوب يحدد ذلك بالشهور الأخيرة من عام ١٨هـ أو الشهور الأولى من عام ١٩، وبعد عودة أبي عبيدة إلى الشام واستقباله ومعه أمراء الأجناد لعمر عند «سرْغ» وقد عرفنا الحوار الطويل الذي دار بينهم وبين عمر، وعاد عمر ومن معه إلى المدينة دون أن يواصل رحلته إلى الشام.

* * *

أما الرحلة الثالثة إلى الشام وهي الأخيرة في حياة عمر فلا يمكن أن تكون قبل النصف الثاني من سنة تسع عشرة للهجرة لارتباطها بما نجم عن طاعون عمواس من نتائج محزنة، فقد هلك في الطاعون خمسة وعشرون ألفاً من المسلمين فيهم كثير من أشراف الناس وقادتهم منهم أبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، فخاف عمر أن تضيع مواريث من مات، فكان تقسيم هذه المواريث من أهم أهداف رحلته هذه، زيادة على سد فروج الشام ومسالحها[3].

ونقل عن عمر رضي الله عنه بعد طاعون عمواس قوله «ضاعت مواريث الناس بالشام: أبدأ بها فأقسم المواريث، وأقيم لهم ما في نفسي، ثم أرجع، فأتقلب في البلاد، وأنبذ إليهم أمري»[4].

* * *

(١) انظر نص العهد في الطبري ٣/٦٠٩. وانظر كذلك جابر قميحة: أدب الخلفاء الراشدين ١٤٧.
(٢) الطنطاويان: سيرة عمر بن الخطاب ١٦٦.
(٣) انظر الطبري ٤/٦٥.
(٤) الطبري ٤/٥٩.

فالابتلاءان إذن كانا متتاليين عام الرمادة أولاً.. وتلاه مباشرة طاعون عمواس، وقد رأينا سياسة عمر في مواجهة عام الرمادة، **فكيف واجه طاعون عمواس؟**

١ - أخذ عمر بالأحوط فرفض أن يدخل هو وصحبه عمواس.. واطمأن إلى هذا التصرف استنادا إلى منطق العقل؛ لا فرارا من قدر الله إلا إلى قدر الله.. فقدر الله حكم لا مهرب منه، واختيار الإنسان ما يرى أنه الأصلح لا يعد من قبيل التمرد على القدر، وكان عمر فطنا حكيماً حين استشهد على صحة وجهته بمثل من واقع الحياة يعيشه الناس: مثل المرعى الخصيب والمرعى الجديب.

وأخيراً ازدادت طمأنينته واقتناع من معه - ممن رأى رأيه أو عارضه - بالنص الشرعي، وهو حديث رسول الله ﷺ الذي رواه عبد الرحمن بن عوف.

«فكان إيمانه بصيرا لا يهجم به على عمياء، ولا يستسلم فيه استسلام العجزة وهو قادر على الحيطة والأخذ بالأسباب؛ وكانت نصيحته العامة للمسلمين في أمر الطاعون كرأيه الخاص في أمر نفسه وصحبه فأمرهم بالاستنقاذ ما وجدوا له سبيلا»(١).

٢ - ومن حرصه على سلامة المسلمين وقد اشتد الوباء كتب إلى أبي عبيدة: «أما بعد فإنك أنزلت الناس أرضاً غمقة(٢) فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة»(٣).

ولكن الأجل لم يمهل أبا عبيدة فمات بالطاعون، وبه مات خليفته معاذ بن جبل فلما مات استخلف على الناس عمرو بن العاص فتبنى دعوة عمر وخطب الناس قائلا: «إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتحيلوا منه في الجبال»(٤).

ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا، ورفع الله عنهم الوباء.

٣ - وأبانت هذه المحنة عن حب عمر بن الخطاب لأبي عبيدة رضي الله عنهما واعتزازه به، كما أبانت عن حرص أبي عبيدة على أن يكون قدوة لغيره من المسلمين، فهو قائد الناس في الشام، وعمر كان به ضنينا فأراد أن يستقدمه ليبعد به عن أرض الهلاك فكتب إليه:

«سلام الله عليك أما بعد، فإنه قد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه في يدك حتى تقبل إليّ»(٥).

فكتب إليه أبو عبيدة:

---

(١) عبقرية عمر ١١٥.

(٢) غمقة: فاسدة الريح.

(٣) الطبري ٤ / ٦١.

(٤) الطبري ٤ / ٦٢.

(٥) الطبري ٤ / ٦١.

«يا أمير المؤمنين، إني قد عرفت حاجتك إلي، وإني في جند لا أجد بنفسي رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم حتي يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه، فحللني من عزمتك يا أمير المؤمنين، ودعني في جندي»(١).

٤ - وفي هذه النكبة أخذ عمر نفسه بمبدأ الشورى، فهو لم ينفرد برأيه، أو لم يبن عن رأيه ابتداء، ولكنه استشار الناس على اختلاف سبقهم في الإسلام.

ثم أعلن عن رأيه الذي أيده بدليل عقلي واقعي يعيشه الناس، ثم كان النص الذي لا اجتهاد معه وهو حديث رسول الله ﷺ الذي ينهي عن خروج أهل البلدة إذا حلّ بها وباء، وينهي عن دخول غيرهم إليها. وهو ما يسمي في الوقت الحاضر بالحجر الصحي.

* * *

إن ما نزل بالمسلمين من قحط وجوع عام ١٨ هـ الذي أطلق عليه عام الرمادة، وما نزل بهم من مرض هو الطاعون بعيد ذلك إنما هما محنتان متلاحقتان وابتلاءان قويان في النفس، وحاجات النفس من طعام ومال وشراب وكساء، وتنتهي المحنتان، وتبقى الدلالات والدروس والمواعظ والقيم التي تمثل وجه الخير فيما نزل بالمسلمين ومنها:

١ - إثبات مصداقية القرآن الذي نزلت آياته المدنية تنبه المسلمين مقدماً إلى أن الابتلاء الجماعي سنة إلهية ممتدة، ومن هذه الآيات:

- ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾(٢).
- ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾(٣).

٢ - تقوية الأمة الإسلامية، وزيادة طاقتها، وإحماء قدرتها على تحمل الشدائد والمكاره والصعاب، فهذا الابتلاء الذي تمثل في هاتين المحنتين العاتيتين لم يوقف مسيرة الفتوح الإسلامية لنشر الإسلام في ربوع آسيا وأفريقيا.

٣ - ترسيخ فضيلة الصبر في نفوس المسلمين حتى أصبحت هذه السمة جزءاً أساسياً من نسيج الشخصية المسلمة.

٤ - إبراز قيمة «العمل الجماعي» والتعاون الصادق بين جميع أفراد الأمة للتغلب على المكاره والمصائب، وقد رأينا كيف هرع ولاة الأمصار في تقديم الإمداد من طعام وكساء.

٥ - من أهم عوامل التوفيق في التغلب على الشدائد براعة الحاكم في مواجهتها

(١) الطبري ٤ / ٦١.
(٢) سورة البقرة: [١٥٥].
(٣) سورة محمد: [٣١]، وانظر الفصل الأول من هذا البحث.

بحساب دقيق، وتخطيط محكم، مع المتابعة الجادة لما أُنجز من مراحل هذه التخطيط. وأهم من ذلك أن يكون الحاكم نفسه قدوة حسنة للرعية في سلوكه وعمله ومعاشه.

٦ – للطاقة الروحية أكبر الأثر في مواجهة المحن وتحملها دون اهتزاز وهلع، ولا ينشيء هذه الطاقة ويشحذها ويقويها مثل الإيمان بالله، والحرص على التقوى والذكر والاستغفار.

٣ - ابتلاء العلماء

أحمد بن حنبل(*) ومحنة خلق القرآن

العلماء هم ورثة الأنبياء، وهم الناطقون بالشرع، الناشرون لدين الله الحافظون لكتابه، الذائدون عن ملته، لذلك رفع الله سبحانه وتعالى مكانتهم في محكم كتابه فقال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ۝٩ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۝١١ ﴾(٢).

والعلماء هم الذين يدركون الحق، ويقدرونه حق قدره، ويركنون إلى اليقين ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦ ﴾ (٣).

ويعرفون حقيقة الوحي وجلاله، ويعظمون أمر الله ويخشعون له في صدق وإيمان ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝١٠٩ ﴾(٤).

وهم أهل الإيمان الحق واليقين الراسخ، والتسليم له تسليما لا يشوبه ضعف ولا شك ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ۝٧ ﴾(٥).

* * *

(*) أحمد بن حنبل هو الإمام أبو عبد الله بن محمد بن حنبل الشيباني (١٦٤ - ٢٤١) ولد ببغداد، وكان إمام المحدثين. صنف كتابه (المسند) وجمع فيه من الأحاديث ما لم يتفق لغيره، وكان كثير الحفظ صاحب الإمام الشافعي إلى أن ارتحل إلى مصر، وقال في حقه «خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقي ولا أفقه من ابن حنبل. وقد عاصر من الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل.

وممن أخذ عنه الحديث الإمامان البخارى ومسلم، وله كتب منها غير المسند «الناسخ والمنسوخ» و «الرد على الزنادقة الصحابة» و «المناسك» و «الزهد» و «الأشربة» و «المسائل» و «العلل والرجال» الأعلام ١ / ٢٠٣. وانظر وفيات الأعيان ١ / ٦٣ - ٦٥.

(١) سورة الزمر: [٩].

(٢) سورة المجادلة: [١١].

(٣) سورة سبأ: [٦].

(٤) سورة الإسراء: [١٠٧ - ١٠٩].

(٥) سورة آل عمران: [٧].

فلا عجب أن يكون العلماء في كل عصر هم الأسوة والقدوة، وبقدر علمهم تكون مسئوليتهم فى توجيه الناس إلى الحق، وإرشادهم إلى ما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم، يسخون ولا يضنون بما رزقهم الله من علم وقدرة على التعليم والتوجيه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر في صراحة واتزان ووضوح، ولذلك يقول الإمام أحمد بن حنبل «**إذا أجاب العالم تقية، والجاهل يجهل فمتى يتبين الحق؟**»(١).

فجناية التقية هنا - وهي إظهار غير الحق والواقع وخلاف ما يؤمن به العالم - لا تمثل وجها سلبيا ولكن وجها إيجابيا خطيرا؛ لأن عامة الناس يجهلون الحق والصواب، وينظرون إلى العلماء على أنهم منارات الهداية والرشاد والإرشاد، ومن ثم يقتدون بهم معتقدا وقولا وفعلا، ويسيرون على دربهم، وينقلون عنهم لغيرهم فينستر الحق، ويظهر الباطل في ثوب غير ثوبه، والضلالة بوجه غير وجهها الحقيقى.

فالجهر بالحق وتوجيه الآخرين وإرشادهم إلى وجوه العمل الصالح حتى يأتوه، والباطل والعمل الطالح حتى يحذروه ويتقوه يمثل رسالة العالم الفقيه والهدف الذي يتغياه كما يفهم من قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾(٢).

والمعنى أن الطائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو، ومن بقي من الفرقة يقفون لطلب العلم ويعلمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من الغزو، أو يذهبون في طلبه إلى المكان الذي يجدون فيه من يتعلمون منه، ليأخذوا عنه الفقه في الدين، وينذروا قومهم وقت رجوعهم إليهم.

وذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد، وهي حكم مستقل بنفسه في مشروعية الخروج لطلب العلم، والتفقه في الدين جعله الله سبحانه متصلا فيكون السفر نوعين: الأول سفر الجهاد، والثانى السفر لطلب العلم، ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه في الحضر من غير سفرٍ..

ومعنى «**لعلهم يحذرون**»: الترجي لوقوع الحذر منهم عن التفريط فيما يجب فعله فيترك، أو فيما يجب تركه فيفعل(٣).

---

(١) انظر عبد العزيز البدري: الإسلام بين العلماء والحكام ١٦٣.

(٢) سورة التوبة: [١٢٢].

(٣) الشوكاني: فتح القدير ٢/ ٥١٦ - ٥١٧.

فالآية إذن تعرض ثلاثية كريمة تمثل المراحل الثلاث الآتية:

١ – التفقه في الدين والعلم، ويمثل جانب التلقي وإعداد النفس فقهيا وعلميا للإعطاء والتوجيه.

٢ – الإنذار والتوجيه والإرشاد جهرة وصراحة دون مواربة، وهذا هو جانب المنح والإعطاء.

٣ – استجابة الأمة وانتفاعها بالحذر من الوقوع في الخطايا، مع الحرص على السير في درب الحق والخير والصلاح.

* * *

وبخلاف ذلك – أى اتخاذ التقية – مع بقاء عامة الناس على جهلهم – لن يتبين الحق – كما يقول الإمام أحمد بن حنبل.

على أن الأخذ بالتقية في دار الإسلام – كما يقول أبو زهرة – لا يصح، لأن المنكر في دار الإسلام يجب استنكاره، وإلا تحولت صفتها، ولم يعد لها اسمها. وأن الاستنكار له مراتب، والتقية تكون حيث لا يكون للإسلام قوة وسلطان كبلاد يُضطهد الإسلام فيها، ولا سبيل للمسلم في الخروج منها، فيستخفي بدينه، وتلك رخصة رخصت له تيسيرا وتسهيلا، وكل نفس وما تطيق.

ولأن التقية لا تجوز من الأئمة الذين يُقتدى بهم، ويُهتدى بهديهم، حتى لا يضل الناس؛ لأنهم إن نطقوا بغير ما يعتقدون وليس للناس علم ما في الصدور اتبعوهم في مظهرهم، ويظنون أنه الحق الذى اتبعوه دينا، وبذلك يكون الفساد عاما ولا يخص، وحق على الإمام أن يكون الممتحن المبتلى فتنتشر الفكرة السليمة ويكون الابتلاء سبيل نشرها وذيوعها(١).

* * *

وقد أخذ الإمام أحمد بن حنبل نفسه بهذا المبدأ الحق: **الصراحة وتجنب التقية** في مواجهة محنة خلق القرآن، هذه الدعوة التي أخذت صورتها الحادة الجادة في عهد المأمون. وظلت المحنة قائمة في عهد المعتصم والواثق إلى أن أزال الله غمتها على يد المتوكل(٢).

---

(١) محمد أبو زهرة: ابن حنبل ٥٧.

(٢) المأمون هو عبد الله أبو العباس بن الرشيد (١٧٠ – ٢١٨)، ولاه أبوه العهد بعد أخيه الأمين، ولكن الأمين غدر به بعد أن تولى الأمر، فقتله المأمون وتولى الخلافة سنة ١٩٨. كثرت في عهده الفتن والثورات، ونشطت حركة الترجمة وقاد حملات حربية ضد البيزنطيين. =

وقد استقرأ أحد الباحثين المعاصرين المواقف المتعددة من مسألة (خلق القرآن)، وخلص إلى حصرها فى ستة مواقف منها اثنان قصيّان يقفان على طرفي نقيض هما :

١ – القرآن كلام الله مخلوق وهو قول جعد بن درهم، والجهم بن صفوان، وكثير من الخوارج والشيعة وبعض المرجئة والمعتزلة جميعًا .

٢ – القرآن كلام الله قديم غير مخلوق، وهو قول أصحاب الحديث والسنة وعلى رأسهم أحمد بن حنبل .

وهناك أربعة مواقف متوسطة تتلخص فيما يأتي :

١ – القرآن كلام الله المقروء صفة قائمة به قديمة، والقراءة محدثة مقروءة، وهو قول الكلاّبية، نسبة إلى عبد الله بن كلاب .

٢ – القرآن كلام الله : الكلام النفسي منه قديم والعبارة عنه مخلوقة، وهو قول الأشاعرة .

٣ – القرآن لا يقال عنه إنه مخلوق، ولا يقال عنه إنه غير مخلوق بل « نقف » وأصحاب هذا الرأى هم (الواقفة) .

٤ – القرآن كلام الله غير مخلوق، ولفظي به مخلوق، وقراءتي له مخلوقة . وهو مذهب اللفظية[١] .

* * *

= والمعتصم بالله العباسي (١٨٠ – ٢٢٧) بويع بالخلافة بعد وفاة المأمون . فتح عمورية من بلاد البيزنطيين الشرقية . وشيد مدينة سامرا بعد أن ضاقت بغداد بجنده وتوفي بها .

والواثق بالله (١٩٦ – ٢٣٢) هو أبو جعفر هارون بن المعتصم كان أديبا شاعرا . ويقال إنه كان حسن الصوت ويتقن الغناء . اتبع نهج عمه المأمون في تنشيط العلوم .

والمتوكل (٢٠٦ – ٢٤٧) قتل غيلة على يد بعض قواده الأتراك . أبطل الجدل والخوض في مسألة خلق القرآن . ويقال إن عهده كان عهد رخاء ونضارة [انظر تاريخ الخلفاء للسيوطى [٢٨٤ – ٣٣٠] .

والدولة العباسية للخضرى ٢٣٩٦ – ٣٦٩] .

ويروى أن أول من قال إن القرآن مخلوق هو الجعد بن درهم في العصر الأموي فقتله خالد بن عبد الله القسري بالكوفة . وقال مثل ذلك الجهم بن صفوان، وكان المعتزلة هم أعلى الناس صوتا فخاضوا في حديث خلق القرآن خوضًا شديدا ابتداء من عهد الرشيد، ولكنه لم يشجع المعتزلة على ذلك الخوض، بل يروى أنه حبس طائفة من المجادلين من هؤلاء المعتزلة . [انظر أبا زهرة : ابن حنبل ٣٨ – ٣٩] .

ومما يروى عن أحمد بن حنبل قوله « إني لأرجو أن يرحم الله الأمين بإنكاره على إسماعيل بن علية، فإنه أدخل عليه فقال له : يا ابن الفاعلة أنت الذى تقول كلام الله مخلوق؟! » .

[تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٨١] .

(١) د . فهمى الحدعان : المحنة . وانظر تفصيل ما سبق ١٩ – ٤٠ .

ومن عجب أن نرى الشيخ عبد المتعال الصعيدى يقول بالرأى الوسطي الثاني (قول الأشاعرة) دون أن ينسبه إليهم وذلك بعبارة توهم أنه رأى من ابتكاره فيقول بالحرف الواحد « على أن القرآن له إطلاقات لأنه يطلق على الكلام النفسى القائم بذاته تعالى، ويطلق على ما بين دفتى المصحف من الألفاظ المركبة من الحروف والأصوات، والأول غير =

وكان المعتزلة – كما ألمحنا من قبل – يعتنقون مبدأ القول بخلق القرآن، ويتحمسون له إلى أقصى درجات التحمس، فلما جاء المأمون أحاط به المعتزلة وكان جل حاشيته من رجالهم وأدناهم هو إليه، وقربهم زلفى نحوه وأكرمهم أبلغ الإكرام، حتى يروى أنه كان إذا دخل عليه أبو هشام القوطي – من أئمة المعتزلة – تحرك له، حتى يكاد يقوم، ولم يكن يفعل ذلك مع أحد من الناس والسبب في ميل المأمون للمعتزلة ذلك الميل أنه كان تلميذا لأبي الهذيل العلاف في الأديان والمقالات، وأبو هذيل من رءوس المعتزلة(١).

وتبنى المأمون هذه الدعوة وظل وفيا لها إلى أن مات، ففي وصيته قبل موته بساعات أو أيام « . . . وأن الله خالق وما سواه مخلوق، ولا يخلو القرآن أن يكون شيئًا له مثل، ولا شيء مثله تبارك وتعالى . . » .

وفى الوصية ذاتها يوجه الحديث إلى أخيه المعتصم « ادن منى واتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك في القرآن »(٢).

وكان **لأحمد أبي دؤاد**(٣) القدح المعلى في هذه الدعوة، وامتحان الآخرين وتقييم أقوالهم واستخدام العنف معهم على مدى عهود الخلفاء الثلاثة: المأمون والمعتصم والواثق، وبلغ من اعتزاز المأمون به حرصه على أن يوصي به أخاه المعتصم، فجاء في وصيته الأخيرة « . . . **وأبو عبد الله بن أبي دؤاد فلا يفارقك، وأشركه في المشورة في كل أمرك فإنه موضع لذلك منك**»(٤).

* * *

وبدأت المحنة تأخذ صورتها التنفيذية متدرجة متصاعدة على عدة مراحل، وذلك في الكتب الأربعة التي وجهها المأمون وهو في الرقة إلى عامله في بغداد إسحاق بن إبراهيم:

ففي ختام كتابه الأول(٥) يقول لإسحاق: « . . فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما

= مخلوق قطعا والثاني مخلوق قطعا، ولو أن المأمون وخصومه حرروا موضع الخلاف في هذه القضية على هذا الوجه لم يحصل خلاف بينهم، ولوفروا على المسلمين ما ضاع عليهم من الزمن في هذا الخلاف . . إلخ
[القضايا الكبرى في الإسلام ٢٥٣].

(١) أبو زهرة: ابن حنبل ٣٩.

(٢) الطبرى ٨/ ٦٤٧.

(٣) أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإيادي (١٦٠ – ٢٤٠) ولد بالبصرة ونشأ بها في طلب العلم وخصوصا الفقه وعلم الكلام. وكان من أصحاب واصل بن عطاء لذلك مال إلى الاعتزال. وكان عالما وشاعرا وأديبا مجيدا فصيحا. عينه المعتصم « قاضى القضاة » وبلغ أرقى مكانة فى عهده حتى قيل إنه لم يكن يبرم أمرا إلا برأيه. وقد أحصى له المؤرخون من المآثر والمكرمات الكثير والكثير. وعاش مشجعا معينا لكثير من أهل الأدب [انظر وفيات الأعيان ١/ ٨١ – ٩١ وانظر كذلك العصر العباسي لمحمد الخضري: ٣٢٠ – ٣٢٤].

(٤) الطبرى ٨/ ٦٤٧.

(٥) الطبرى ٨/ ٦٣١ – ٦٣٤.

يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلده الله، واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه، فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره، والامتناع من توقيعها عنده، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرف عليهم، وتفقد آثارهم، حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين، والإخلاص للتوحيد، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله».

* * *

والكتاب أمر صريح لوالى بغداد بحرمان كل من لم يقل بخلق القرآن من وظائف الدولة، ورفض شهادتهم من فقهاء وعلماء ومحدثين وعمال. وعليهم أن يعلنوا ذلك على رؤوس الأشهاد، واعتبر القول بغير ذلك أو السكوت عنه تنكب عن سبيل الهدى والنجاة والتوحيد.

* * *

وفي كتاب تالٍ يأمر المأمون عامله إسحق بن إبراهيم بالقبض على المخالفين، ووضعهم في أغلال الحديد، وإرسالهم إليه في الرقة، ومما جاء في هذا الكتاب[1]، « ... ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين في كتابك وذكره أمير المؤمنين لك أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا ولم يقل إن القرآن مخلوق.. فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في طريقهم، حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين، ويسلمهم إلى من يؤمن بتسليمهم إليه، لينصهم أمير المؤمنين، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله[2].

وأصر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على رفض القول بخلق القرآن، فشدا في الحديد، ووجها إلى الرقة حيث المأمون، ولكن المنية وافته قبل أن يصلوا إلى المأمون، فأعيدا إلى بغداد. ولولا وفاة المأمون لكان مصرعهما على يديه، بعد أن صرح بذلك فى كتابه الأخير بأن من لم يرجع ويتب فليس له إلا السيف[3].

* * *

(١) انظر نص الكتاب في الطبري ٨/ ٦٤٠ – ٦٤٤.

(٢) السابق ٦٤٤.

(٣) أبو زهرة: ابن حنبل ٥١.

ويرى أبو زهرة أن كاتب هذه الكتب الأربعة الطوال هو أحمد بن أبي دؤاد، فالمأمون كان يرى خلق القرآن منذ تولى الخلافة بل قبلها، وكان يناقش فيه ويدعو إليه في مجلس مناظراته، من غير أن يكشف عن القلوب ويمتحن العقول =

وكان البلاء أشد وأعتى فى عهدي المعتصم والواثق، وتعددت صور المحنة ما بين ضرب وسجن وقتل وقد «بويع المعتصم بالخلافة بعد المأمون فى شهر رجب سنة ٢١٨هـ، فسلك ما كان المأمون عليه وختم به عمره من امتحان الناس بخلق القرآن، فكتب إلى البلاد بذلك، وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك، وقاسى الناس منه مشقة في ذلك، وقتل عليه خلقا من العلماء، وضرب الإمام أحمد بن حنبل وكان ضربه فى سنة عشرين»(١).

وممن امتحت في القرآن المحدث الفقيه عفان بن مسلم بن عبد الله الصقار البصري، ويقال إنه أول من امتُحن في ذلك إذ استدعاه اسحاق بن إبراهيم، وأمره بأن يقول بما يقوله المأمون من خلق القرآن، فرفض فقطع عنه رزقه بأمر الخليفة، وأخذ يردد في حضرة إسحاق بن إبراهيم (وفي السماء رزقكم وما توعدون) ومات بعدها بأيام (سنة ٢٢٠ هـ)(٢).

ومنهم عبد الحكم بن عبد الله بن عبد الحكم الذى ضُرب فى عهد المأمون في مسجد مصر قرابة ثلاثين سوطا في غلالة(٣).

ومنهم أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي وهو من أشراف بغداد، وكان يستنكر القول بخلق القرآن، ويقدح في «الواثق»، فقبض عليه وقتله بسامراء وبعث برأسه إلى بغداد، فنصب فيها ست سنين، وجسده بسامراء سنة ٢٣١ هـ(٤)، وعلقت فى أذن الرأس رقعة كتب فيها «هذا رأس الكافر المشرك الضال وهو أحمد بن نصر بن مالك ممن قتله الله على يدى عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه(٥).

وقبض على أتباعه ومريديه، ووضع نيف وعشرون رجلا منهم فى الحبوس المظلمة، ومنعوا من أخذ الصدقة التي يعطاها أهل السجون، ومنعوا من الزوار وثقلوا بالحديد(٦).

= وينزل البلايا، فلماذا تحول هذا التحول فى آخر حياته، لماذا نقل المسألة إلى الابتلاء؟ لا شك أن أحمد بن أبي دؤاد كاتب هذه الكتب هو المحرض، ولابد أنه استغل حالة ضعف نفسي في المأمون، فهو يكتب الكتب بتلك اللغة وحرص على كتابتها متضمنة ما تضمنت من ابتلاء واختبار.

ويتساءل أبو زهرة مؤكدا رأيه السابق:

لماذا لم يتخذ المأمون – وهو ببغداد والعلماء جميعا حوله، ولم يدع إلى الامتحان إلا وهو غائب عن بغداد بالكتب يرسلها، ثم يكون ذلك قريبا من موته!!؟ إنه سلطان أحمد بن أبي دؤاد الكامل قد اتخذ فيه اسم المأمون، ولم تكن إرادة المأمون في الأمر كاملة، ولم تكن له قوته الحازمة.. [ابن حنبل ٥٢].

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٣١٠.

(٢) أبو العرب: كتاب المحن ٤٣٣ – ٤٣٤.

(٣) أبو العرب: السابق ٤٣٤.

(٤) انظر السابق ٢٥٢ والطبري ٩/ ١٣٥ وما بعدها.

(٥) الطبري ٩/ ١٣٩.

(٦) السابق نفس الصفحة.

ومنهم نعيم بن حماد (ت ٢٢٩) من أهل مرو، قبض عليه في مصر، وأشخص إلى بغداد في عهد المعتصم مقيدا بالحديد، ولم يستجب للقوم في القول بخلق القرآن فحبس بسامرا، وظل محبوسا بها حتى مات سنة ٢٢٩، فجُر بقيوده وأُلقي في حفرة ولم يكفن ولم يصل عليه[١].

* * *

وكان أحمد بن حنبل هو أشهر من ابتلي بهذه المحنة، مع أنه لم يستشهد فيها، ولم يكن أطول ضحاياها سجنا أو نزول التعذيب والضرب به على شدة ما لاقاه وبشاعته.

ومن ذلك ما حدث به أبو عمران موسى بن الحسن البغدادي، قال: حضرت أمر أحمد بن محمد بن حنبل، وقد حمل إلى المأمون، وكان ببلاد الروم فقدم «طرسوس» فكتب المأمون إلى عامله «بطرسوس» ووجه إليه بكتاب فقال: اقرأه عليه فإن أقر بما فيه وإلا اقطع يديه ورجليه فقرأ عليه الكتاب، فقال له أحمد «القرآن كلام الله، وكلام الله غير مخلوق» فأراد العامل إنفاذ أمر المأمون، فقام رجلان من أهل الدين والفضل دون أحمد يقال لهما: محمد وإسحاق ابنا الطباع، وقام معهما عالم من الناس، فمنعوه منه. وسلم أحمد إلى أيام المعتصم[٢].

ويروي الإمام أحمد بن حنبل بعض ما وقع له أيام المعتصم (١٨٠ - ٢٢٧) فقال «ناظروني يوم المحنة ونحن بحضرته - يعني أبا إسحاق المعتصم، وفي رجلي ثلاثة قيود قد أثقلتني، وجمعوا علي نحوا من خمسين من المناظرين، فقلت لا أكلمكم إلا بما في كتاب الله أو سنة رسوله، فقطعتهم فلكزني عجيف[٣] بقائم سيفه، وقال: أنت وحدك تريد أن تغلب هذا الخلق، ولكزني إسحاق بن إبراهيم[٤] بقائم سيفه - وأشار بن حنبل إلى عنقه قال (إسحاق) وأنت تقول إلا ما كان في كتاب الله أو سنة رسوله؟ فقال المعتصم: خذوه».

فأخذوا بضبعي (عضدي) فخلعوني، فأنا أجد ذلك في كتفي إلى الساعة. وكانا جلادين، فكان يضرب كل واحد منهما سوطا ويتنحى، فضرب ثلاثين سوطا يقال إنها تعدل ثلاثمائة سوط[٥].

---

(١) ابن سعد ٧/ ٥٣٩. وانظر: أبو العرب: المحن ٤٦٠.

(٢) أبو العرب: كتاب المحن ٤٣٥.

(٣) عجيف بن عنيسة أحد قواد المعتصم قتل سنة ٢٢٣ (ابن الأثير ٦/ ٤٩٢).

(٤) إسحاق بن إبراهيم بن الحسين المصعبي الخزاعي صاحب الشرطة ببغداد أيام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل وكان وجيها مقربا من الخلفاء. ت سنة ٢٣٥ (ابن الأثير الكامل ٧/ ١٧).

(٥) كتاب المحن: السابق ٤٣٨.

وقد جاءه عمه وهو بين العقابين[١]، وقد ضرب إلا أنه لم يحل عنه، وقد أرخى أحمد رأسه فقال: يا ابن أخى، قل القرآن مخلوق على التقية فرفع أحمد رأسه إليه وقال له: يا عم: إنى عرضت نفسي على السوط فصبرت وعرضت نفسي على النار فلم أصبر[٢].

وظل أحمد في الحبس تسعة وعشرين شهرا، وقيل كان مكثه في السجن منذ أخذ وحمل إلى أن ضرب وخلي عنه ثمانية وعشرين شهرا[٣]، وكان أثر الضرب بيّنا فى ظهره إلى أن توفي رضى الله عنه، ولم يزل بعد أن برىء يحضر الجمعة والجماعة، ويفتي ويحدث حتى مات المعصتم[٤].

ولما تولى الواثق (١٩٦ - ٢٣٢) أعاد المحنة على أحمد، ولكنه لم يتناول السوط، وضرب أحمد كما فعل المعتصم، إذ رأى أن ذلك زاده منزلة عند الناس، وزاد فكرته ذيوعا، ومنع دعوة الخليفة أن تذيع وتفشو، فوق ما ترتب على ذلك من سخط العامة ونقمة من سماهم ابن أبي دؤاد حشو الأمة، فإن العاقل يحسب لنقمتهم حسابا، ولذلك لم يرد أحمد بن أبى دؤاد والواثق من بعد المعتصم أن يعيد الأذى الجسمى، بل منعه فقط من الاجتماع بالناس، وقال الواثق له «لا تجمعن إليك أحدا ولا تساكني في بلد أنا فيه» فأقام الإمام أحمد مختفيا لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق[٥].

ولما تولى المتوكل (٢٣٢ هـ) أوقف محنة القول بخلق القرآن ومال إلى مذهب أهل السنة واضطهد الشيعة والمعتزلة، ومنع الناس من الاشتغال بالفلسفة[٦].

وظل أحمد بن حنبل ثابتا على معتقده في أن «القرآن كلام الله ليس بمخلوق» ويقال إن المتوكل كتب إليه يسأله من أمر القرآن لا مسألة امتحان، ولكن مسألة معرفة وبصيرة. فرد عليه أحمد بكتاب جاء فيه:

« ... فنفى الله بأمير المؤمنين كل بدعة، وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق المحابس، فصرف ذلك كله، وذهب به بأمير المؤمنين، ووقع ذلك من المسلمين موقعا عظيما، ودعوا الله لأمير المؤمنين، فأسأل الله أن يستجيب في أمير المؤمنين صالح الدعاء، وأن يتم ذلك لأمير المؤمنين، وأن يزيد في نيته، ويعينه على ما هو فيه. فقد

---

(١) العقابان خشبتان يشبح الرجل بينهما للجلد.

(٢) كتاب المحن: السابق نفس الصفحة.

(٣) أبو العرب: كتاب المحن ٤٣٨.

(٤) انظر صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات،٦/ ٣٦٥ - ٣٦٧.

(٥) أبو زهرة: ابن حنبل ٥٦. وانظر كذلك البدوى: الإسلام بين العلماء والحكام (١٧٦ - ١٧٧).

(٦) الصعيدى: القضايا الكبري فى الإسلام ٢٥١ - ٢٥٢.

ذكر عن ابن عباس أنه قال: لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم وقد روى عن غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون: القرآن كلام الله ليس بمخلوق، وهو الذي أذهب إليه لست بصاحب كلام، ولا أدرى الكلام في شيء من هذا إلا ما كان في كتاب الله أو حديث عن النبي ﷺ، أو عن أصحابه، أو عن التابعين رحمهم الله، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود(١).

ويرى الدكتور فهمي جدعان أن القول في مقدار الضرر الذي ألحق بابن حنبل في المحنة من «أخذ» و «حمل» و «حبس» و «ضرب» يعتبر موضع نظر، لأن فيه خلافا إذ يذكر بعضهم أنه ضرب ثمانين سوطا، ويذكر آخر أنه ضرب ستة وثلاثين، ويورد ثالث ثمانية وثلاثين سوطا.... أما أحمد بن أبى دؤاد فيجيب عن سؤال الخليفة المعتصم كم ضرب الرجل قائلاً: نيفا وثلاثين: ثلاثة أو أربعة وثلاثين سوطا.... وهذه على كل حال مسألة غير جليلة لكنها تدل بوضوح على أن محنة أحمد لم تكن جسيمة حقا، وأن ما جرى له لا يتناسب إطلاقا مع الضجة التى أثارتها حولها «وسائل الاتصال والبث الحنبلية»، كما أنها لا تقارن بما جرى لغيره ممن امتحنوا وانتهى بهم الامتحان إلى الموت فى الحبس أو بالسيف(٢).

ونحن مع الباحث فى أن هناك من كانت محنته أشد وأعتى من محنة أحمد بن حنبل، ولكن هذا الواقع لا يعنى التهوين من شأن محنة ابن حنبل فمن الخطأ الحكم على أبعاد المحنة بهذا المعيار الكمى، بل يجب أن ينظر فى تقييمها إلى اعتبارات أخرى مثل سن الإمام حين إلقائه في السجن وتقييده بالحديد وجلده إذ كان قد بلغ سن الشيخوخة. ومما يبشّع من شأن المحنة، كذلك مكانته العلمية والفقهية إماما ومحدثا؛ فلطمة واحدة يلطم بها مثله لا يقاس بها آلاف السياط تنزل على واحد من العامة أو مغامير المتعلمين فالإضرار الأدبي والنفسى أشد وأنكى على نفس مثله من الضرر الجسمانى، مهما كانت درجته(٣).

وصار الإمام أحمد – كما يقول ابن تيمية – مثلا سائرا يضرب به المثل في المحنة والصبر على الحق، فإنه لم تكن تأخذه في الله لومة لائم، حتى صارت الإمامة مقرونة

---

(١) انظر لأبي نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٩/ ٢١٩.
وابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد بن حنبل ٣٨٩.

(٢) جدعان: مرجع سبق ١٥٣.

(٣) وإن كانت بعض الروايات قد بالغت إلى حد كبير فيما نزل بأحمد بن حنبل كتلك التي تقول إن أحد الجلادين الستين الذين استدعاهم المعتصم لضرب الإمام أحمد ضربه سوطين شق منهما خصريه؛ وسالت أمعاؤه، فأمر به فأخرج من الحديد، وشد بثبوت تام. [أبو العرب: كتاب المحن ٤٣٦].
والمبالغة واضحة في هذا الخبر؛ إذ لو صح ما عاش ابن حنبل ساعة أو بعض ساعة مع أنه عاش بعد ذلك ما لا يقل عن عشرين عاما.

باسمه، في لسان كل أحد، فيقال: قال الإمام أحمد، وهذا مذهب الإمام أحمد... وما رجع عما جاء به الكتاب والسنة، ولا كتم العلم، ولا استعمل التقية[1].

ويقول أبو الحسن الندوي: وخرج أحمد بن حنبل من هذه المحنة خروج السيف من الجلاء، والبدر من الظلماء، وكان كما قال بعض معاصريه «أدخل الكير فخرج ذهبا أحمر»، ولم يزل بعد ذلك اليوم في صعود واعتلاء حتى تواضعت القلوب على حبه، وأصبح حبه شعار أهل السنة، وأهل الصلاح حتى نقل عن أحد معاصريه أنه قال «إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة»[2].

* * *

(١) ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل ١/ ٣٠٧.

(٢) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ١٤٢.

الخاتمة

في الصفحات السابقة عشنا مع «الابتلاء» بمفهومه اللغوي، ومفهومه الاصطلاحي، وتوظيف الكلمة ومترادفاتها أو شبيهاتها المعنوية في سياق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وما تعكسه من دلالات، وما تثيره من قضايا في رحاب النفس والمجتمع والكون.

كما عرضنا لأنواع الابتلاء الرئيسية وهي : الابتلاء بالضراء والابتلاء بالسراء والابتلاء بالآيات، وما يندرج تحت النوعين الأول والثاني من ألوان وحالات مختلفة. ووقفنا أمام كل لون أو كل حالة، واستخلصنا منها ما تعكسه من دلالات، وما تفيده من دروس وعظات وحكم أثرت وتؤثر في حياة المسلمين وكيانهم، وتوجيه مسيرتهم، وطرائقهم وتعاملهم ومواجهتهم للأعداء والمشكلات والصعاب في السلم والحرب.

وكان عمدتنا فيما عرضنا واستخلصنا كتاب الله وسنة نبيه من ناحية، وبعض النماذج التاريخية من ناحية أخرى، وهي مأخوذة من تاريخ الإسلام وما قبل الإسلام. وفي مقام ذكر ما توجه إليه الابتلاءات من حكم ودروس ومواعظ نلتقي رسالة طيبة للعز ابن عبد السلام[1] ذكر فيها ما للمصائب والمحن والبلايا من فوائد تختلف باختلاف الناس وهي للحق رسالة جمعت فأوعت، وفي السطور التالية نقدم هذه الفوائد بشيء من الإيجاز.

١- معرفة عز الربوبية وقهرها.

٢- معرفة ذلة العبودية وكسرها؛ وإليه الإشارة بقوله تعالى :﴿ **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾[2]

٣- الإخلاص لله تعالى؛ إذ لا مرجع في دفع الشدائد إلا إليه، ولا معتمد في كشفها إلا عليه : ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ** ﴾[3].

---

(١) وعنوان الرسالة «الفتن والبلايا والمحن والرزايا أو فوائد البلوى والمحن».

والعز بن عبد السلام (٥٧٧-٦٦٠هـ) ولد بدمشق، وتوفر على علوم اللغة والقرآن والفقه على المذهب الشافعي، وجلس للتدريس والإفتاء والقضاء والخطابة والتأليف، وانتهى به الأمر إلى استقراره في القاهرة وعاش بها ٢٨ سنة، وبها توفي، بعد أن عاصر نهاية الدولة الأيوبية وحكم أربعة من سلاطين دولة المماليك الأولى حتى أيام الظاهر بيبرس. تولى قضاء مصر والخطابة في مسجد عمرو. ثم اعتزل القضاء، وتفرغ للإفتاء والتأليف. كان يلقب بسلطان العلماء وشيخ الإسلام. ولم يكن يخشى في الله لومة لائم، وله فتاوى جريئة واجه بها بعض حكام عصره. وكان محبوبا مقدرا من الناس، وخرج في جنازته من الناس ما لم تشهد القاهرة مثله عددا وزحاما.

(٢) سورة البقرة : [١٥٦].

(٣) سورة الأنعام : [١٧].

٤- الإنابة إلى الله تعالى والإقبال عليه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ ﴾(١)

٥- التضرع والدعاء: ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾(٢)

٦- الحلم عمن صدرت عنه المصيبة : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾(٣) . . وتختلف مراتب الحلم باختلاف المصائب في صغرها وكبرها، فالحلم عند أعظم المصائب أفضل من كل حلم.

٧- العفو عن جانيها « ﴿ . . وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾(٤) . . والعفو عن أعظمها أفضل من كل عفو.

٨- الصبر عليها، وهو موجب محبة الله تعالى وكثرة ثوابه: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾(٥)، ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٦)

٩- الفرح بها لأجل فوائدها. قال عليه الصلاة والسلام « والذي نفسي بيده إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء » . .

١٠- الشكر عليها؛ لما تضمنته من فوائدها كما يشكر المريض الطبيب القاطع لأطرافه، المانع له من شهواته، لما يتوقع في ذلك من البرء والشفاء.

١١- تمحيصها للذنوب والخطايا: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾(٧)

١٢- رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم، و « الناس معافى ومبتلى، فارحموا أهل البلاء، واشكروا الله على العافية »

١٣- معرفة قدر نعمة العافية، والشكر عليها؛ فإن النعم لا يعرف مقدارها إلا بعد فقدها.

١٤-ما أعده الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها.

١٥- ما في طيها من الفوائد الخفية ﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾(٨) . .

١٦- إن المصائب والشدائد تمنع من الشر والبطر، والفخر والخيلاء، والتكبر

---

(١) سورة الزمر: [٨]

(٢) سورة الزمر: [٤٩].

(٣) سورة التوبة: [١١٤].

(٤) سورة آل عمران: [١٣٤].

(٥) سورة آل عمران: [١٤٦].

(٦) سورة الزمر: [١٠].

(٧) سورة الشورى: [٣٠].

(٨) سورة النساء: [١٩]

والتجبر. . ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِه﴾[1] . . ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾[2]

١٧- الرضا الموجب لرضوان الله تعالي، فإن المصائب تنزل بالبر والفاجر، فمن سخطها فله السخط وخسران الدنيا والآخرة، ومن رضيها فله الرضا، والرضا أفضل من الجنة وما فيها، لقوله تعالى: ﴿**ورضوان من الله أكبر**﴾[3] أي من جنة عدن ومساكنها الطيبة[4]

* * *

وهذه الفوائد التي ذكرها العز بن عبد السلام «تختلف - كما قال - باختلاف الناس»: فإذا صرفنا النظر عن الكافرين والجاحدين في مواقفهم من الابتلاءات سرائها وضرائها - وقد عرضنا نماذج لهؤلاء في هذا البحث - نجد أن المؤمنين في تعاملهم مع هذه الابتلاءات يختلفون في الدرجة لا في النوع، فمن البدهي أن المؤمن يتلقى البلاء بنوعيه تلقي الصابر أو الشاكر، فإن أصيب بضراء صبر، وإن أصيب بسراء شكر. وأرفع من هذا المقام أن يكون المؤمن صابرا في كل حال، وشاكرا في كل حال: صابرا شاكرا في الضراء، باستشفاف وجه الخير في المصيبة، وشاكرا نعمة الله في السراء وصابرا كذلك عما قد تغري به النعمة من شهوات توقع في الحرام.

قال خلف بن إسماعيل الخزاعي: سمعت رجلا منهم (المجذومين) يقول: إن كنت إنما ابتليتني لتعرف صبري فأفرغ عليّ صبرا يبلغني رضاك عني، وإن كنت إنما ابتليتني لتثيبني، وتأجرني، وتجعل بلاءك لي سببا إلى رحمتك بي فمن من عبادك أعظم نعمة ومنّة مننت بها عليّ إذ رأيتني لاختبارك لها أهلا؛ فلك الحمد على كل حال؛ فأنت أهل كلٍّ خير، ووليٌّ كل نعمة[5]

* * *

ويمكن تصنيف الفوائد التي ذكرها العز بن عبد السلام في ثلاث نوعيات أساسية من القيم كان لها تأثيرها الكبير في تشكيل الشخصية المسلمة وفي حياة المسلمين وهي:

١- قيم إيمانية روحية

٢- قيم نفسية وتربوية

---

(١) سورة التوبة: [٧٤].

(٢) سورة الشورى: [٢٧].

(٣) سورة التوبة [ ].

(٤) انظر العز بن عبد السلام: السابق ٩-٢٢

(٥) ابن أبي الدنيا: الصبر والثواب عليه ٥٢، وانظر ما كتبته في الفصل الأول من هذا البحث عن «الابتلاء بين الصبر والشكر».

* * *

والنوع الأول يعني أن يكون الله سبحانه وتعالى هو المرجع والغاية بحسن معرفته وتقديره حق قدره، فيعرف المبتلي «**عز الربوبية وقهرها**»، فهو رب العزة، وهو يعز من يشاء ويذل من يشاء، وقد ذل من ابتغي العزة عند غيره، وكان شأنه شأن المنافقين الذين قال فيهم ﴿**بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)**﴾[١]، فالله سبحانه وتعالى هو رب العزة، وهو مصدر العزة لرسوله وللمؤمنين﴿ .. **فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾[٢].

ويقابل عز الربوبية **ذلة العبودية**، فالعبد يرى في واقعه المشهود المعيش أنه أعجز من أن يدفع عن نفسه محنة، ويستجلب لنفسه منة، إنما مرجع ذلك قدرة الله وعزته. وإدراك المؤمن لهذا الملمح الإيماني يجعله دائما بعيدا عن مستنقع الغرور والتكبر. مخلصا الإخلاص كله لله منيباً إليه، مقبلا عليه داعيا إياه متضرعا إليه.

ومن القيم الإيمانية كذلك: التسليم الكامل بقضاء الله والرضا الموجب لرضوان الله تعالى، فإن المصائب - كما يقول العز بن عبد السلام - تنزل بالبر والفاجر، فمن سخطها فله السخط وخسران الدنيا والآخرة، ومن رضيها فله الرضا.

* * *

ومن القيم النفسية والتربوية: انطباع النفس المؤمنة على خليقة الصبر؛ وهو موجب لمحبة الله وثوابه. وانطباعها كذلك على التفتح بالأمل، والرضا بما قسم الله، والتبرؤ من اليأس والقنوط، وذلك حين يدرك المؤمن أن أمره كله خير في الضراء والسراء ما صبر وشكر.

والمصائب والشدائد - إذا ما نظر إليها المؤمن نظرة الواعي المحتسب - تكسر حدة النفس، وتقيها كثيرا من الآفات الأخلاقية كالشر والبطر، والفخر والخيلاء، والتكبر والتجبر.

* * *

ومن القيم السلوكية: الحلم والعفو. والحلم هو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب[٣]. والعفو عن الآخرين يعني قصد إزالة ذنبهم، وصرف النظر عنه، أي

(١) سورة النساء: [١٣٨-١٣٩].

(٢) سورة الأنعام: [١٧,١٨].

(٣) الراغب الأصفهاني: المفردات ١٣٦.

التجافي عن الذنب(١). فهما خليقتان يتحلى بهما المؤمن إذا كانت المصيبة النازلة به من فعل الآخرين. وقد وصف الله إبراهيم عليه السلام بأنه «أوّاه حليم» فقد كان يدعو الله أن يغفر لأبيه على الرغم من شدته عليه مما جرأ قومه على إلقائه في النار ﴿ **وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ** ﴾(٢) وترك الدعاء والاستغفار له، ثم قال: إبراهيم لدعّاء ربه، شاكٍ له، حليم عمن سبه وناله بالمكروه؛ وذلك أنه صلوات الله عليه وعد أباه بالاستغفار له، ودعاء الله له بالمغفرة عند وعيد أبيه إياه، وتهدده له بالشتم بعدما رد عليه نصيحته في الله وقوله ﴿ **أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا** ﴾ فقال له صلوات الله عليه: ﴿ **سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)** ﴾(٣). فوفي لأبيه بالاستغفار له حتي تبين له أنه عدو لله، فوصفه الله بأنه دعّاء لربه، حليم عمن سفه عليه(٤).

ويأتي **العفو** ليكون الفضيلة العملية التطبيقية لفضيلة الحلم. والحلم إذا كان يمثل صفة سلبية أو «سالبة» لأنها تعني «الامتناع» عن المذنب، فإن العفو يعني «إطلاق» من أذنب، والنزول عن الحق في مقاضاته، وصرف النظر عنه. وقد مدح الله المؤمنين الحلماء، أي «**الكاظمين الغيظ**»، كما أثنى على «العافين عن الناس»(٥)

والحلم عن الآخرين والعفو عنهم يعني مصارعة النوازع الدنيا في النفس وصرعها، ومغالبة شهوة الانتقام أو غريزة حب المقاتلة والتغلب عليها، فنحن – في هذه الحال – في مقام «انتصار ذاتي» يسترفد الملأ الأعلي والمنابع الصافية، وعلي هذا ربّي رسول الله ﷺ المسلمين، فقال ﷺ فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه «**ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»(٦)

وكان النبي ﷺ مثلا عمليا أعلى للمسلمين في هذه الصفة فيروى أنه ﷺ لما كسرت رباعيته، وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه شقا شديدا، وقالوا: لو دعوت عليهم. فقال «**إني لم أبعث لعانا، ولكني بعثت داعيا ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**»(٧)

---

(١) السابق ٣٤٢.
(٢) سورة التوبة :[١١٤]
(٣) سورة مريم:[٤٦-٤٨]
(٤) تفسير الطبري ١١/ ٧١
(٥) في الاية ١٣٤ من سورة آل عمران ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)** ﴾
(٦) أخرجه أحمد في مسنده بإسناد صحيح حديث ٧٢١٨-٧/ ٦١. والصرعة هو القوي الغالب القدير على صرع الآخرين.
(٧) الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٢١.

قال القاضي عياض: انظر ما في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم: إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم، حتى عفا عنهم، ثم أشفق عليهم ورحمهم، ودعا، وشفع لهم، فقال «**اغفر**» .. ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله «**لقومي**» ثم اعتذر عنهم بجهلهم، فقال «**فإنهم لا يعلمون**»[1].

وكان حلمه الأعظم وعفوه الأجمل يوم فتح مكة: قال أبو هريرة: ما قتل يوم الفتح إلا أربعة، ثم دخل صناديد قريش الكعبة وهم يظنون أن السيف لا يرفع عنهم، ثم طاف رسول الله ﷺ، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضَادَتَيْ[2] الباب؛ فقال: ما تقولون وما تظنون؟ قالوا نقول ابن أخ، وابن عم حليم رحيم. فقال: أقول كما قال يوسف ﴿**ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** (٥٢)﴾[3]. قال أبو هريرة: فخرجوا كما نشروا من القبور، فدخلوا في الإسلام[4]

* * *

وقد رأينا كيف كانت حياة الرعيل الأول من المسلمين سلسلة من الابتلاءات والمحن بدأت من بعث محمد ﷺ نبيا ورسولا وإعلان دعوته لعشيرته الأقربين، وكانت الفترة المكية على مدى ثلاثة عشر عاما مشحونة بالابتلاءات والشدائد والإيذاء البدني والنفسي.

- فرفض الكفار دعوة النبي ﷺ وكذبوه، واتهموه – وهو الصادق الأمين بشهادتهم قبل بعثته – بالكذب والسحر والجنون.
- ووسعوا من دائرة هذه الافتراءات، فأخذوا ينشرونها في موسم الحج على رءوس الأشهاد جهرا بين قاصدي بيت الله الحرام من قبائل العرب.
- وكان أبو لهب – وهو عمه – من أشد الناس إيذاء له وتشنيعا عليه: فدفع ولديه عتبة وعتيبة – بإصرار وشدة – إلى تطليق زوجتيهما: بنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم، ولا ذنب لهما إلا أن أباهما ﷺ بعث نبيا ورسولا.
- ومن خسته فرحه واستبشاره لما مات عبد الله الابن الثاني لرسول الله ﷺ، وأخذ يشيع في الناس أن محمد صار «أبتر» أي لا عقب له.
- وكان يجول خلف النبي ﷺ في موسم الحج والأسواق لتكذيبه علانية أمام الوافدين للحج.

---

(١) السابق ١/ ٢٢٢

(٢) عضادتا الباب خشبتان منصوبتان مثبتتان على جانبي الحائط [المعجم الوجيز ٤٢٢].

(٣) سورة يوسف: [٥٢].

(٤) الحافظ الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ٤٥٦.

- وكان يضربه بالحجر حتي يدمي عقباه.
- وكان بيته لصيقا لبيت رسول الله ﷺ، فكانت زوجته أم جميل تضع في طريقه الحطب ذا الأشواك القاسية المدمية.
- وكان من جيرانه المشركين من يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي. وكان يصلي عند البيت الحرام فأحضر عقبة بن أبي معيط سَلَي (أي سقط) بعير، فطرحه عليه -بما فيه من قذر- وهو يسجد، والكفار يضحكون ويتمايلون انتشاء، وهو ﷺ لا يستطيع أن يرفع رأسه إلى أن جاءت فاطمة ابنته - رضي الله عنها- فرفعت عنه السَّلي.
- وعزله كفار قريش هو وبنو هاشم في شعب أبي طالب عدة سنوات، وأعلنوا مقاطعتهم، وحرموا على أنفسهم مصاهرتهم والتعامل معهم، وكانت من أشق السنوات على رسول الله ﷺ ومن معه.
- وحاولوا اغتياله في بيته، ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذه بالهجرة إلى المدينة.
- وابتلاه الله بموت أهم سندين له من البشر وهما خديجة زوجته، وعمه أبو طالب في عام واحد سمي لشدته «عام الحزن».

* * *

هذا ما نزل بالنبي ﷺ من شدائد، وصاحب ذلك ما نزل بالمسلمين - وخصوصا العبيد والضعفاء- من تعذيب وأذي وانتهاكات:

- فقامت كل قبيلة بتعذيب من «صبأ» منها أى أسلم، ومن ليس له قبيلة تولى أمره السادة وسفلة قريش وأوباشها.
- ويقال إن أبا جهل - صاحب القدح المعلّى في حملات التعذيب وعملياته - كان إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال والجاه، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به.
- وكان عم عثمان بن عفان يلف عثمان - بعد أن أسلم - في أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته (أي يعرضه للنار).
- وكانت أم مصعب بن عمير تجيعه وتطرده من البيت، فتخشف جلده تخشف الحية.
- وكان أمية بن خلف يضع في عنق عبده بلال بن رباح حبلا، ويسلمه للصبيان يطوفون به جبال مكة وطرقاتها، ويكرهه على الجوع ويطرحه في حر الظهيرة ، ثم يأمر بصخرة ضخمة فتوضع على صدره. هذا غير ضربه الدائم بالعصا.

- وفي الرمضاء طُرح آل ياسر، وعذبوا تعذيبا وحشيا مات منه ياسر، وقتل أبو جهل زوجته سمية بطعنة من رمحه، ولم يعش منهم إلا عمار.
- ومن الذين ابتلوا بالتعذيب الرهيب خباب بن الأرت، بل نزل مثل هذا العذاب بإماء أسلمن مثل زنيرة والنهدية وابنتها وأم عبيس[1]

* * *

وهذه الشدائد التي ابتلي بها النبي ﷺ وسلم والمسلمون في مكة تكشف لنا عن حقائق متعددة من أهمها:

١ - أن النبي ﷺ كان يعيش «لدعوته» بل «يعيش دعوته»، وأنه أرصد لها كل جهده وطاقته ونفسه وحياته اضطلاعا برسالة النبوة الخاتمة، واستجابة لأمر الله غير مبالٍ بما يتعرض له من أخطار، وما ينزل به من إيذاء، فكان المثل الأعلى والأسوة الحسنة للمسلمين في القدرة على تلقي الصدمات، وتحمل الأذى، وتخطي المصاعب والشدائد دون اهتزاز أو هلع. ودون نزول عن أمر مما يدعو إليه، بل كانت حُلاه الصبر والثبات واليقين وكذلك الحلم والعفو.

٢ - أن صورة النبي ا لمبتلى الصابر، الثابت على اليقين كانت نصب عيون المسلمين الذين نزل بهم الأذى والتعذيب الذي امتد مداه سنوات وسنوات، فكانوا يتأسون بالنبي ﷺ في التحمل والتقبل صابرين ثابتين محتسبين، وكذلك مستهينين بما ينزل بهم من عذاب، فهمّهمْ الأول الانتصار لله ودعوة نبيه، فمنهم من استشهد من أثر التعذيب الوحشي كياسر بن عامر، وزوجته التي طعنها أبو جهل بحربته، أما من عاش منهم فقد أذل كبرياء قريش واستهان بغرورها وصلفها كبلال الذي كان يرطب لسانه بذكر الله «أحد أحد» وهو يُشوى في الرمضاء بحر الشمس، والصخور التي تختزن الحرارة وكانت توضع على صدره.

وبذلك التقت شخصية «القائد الأعلى» بشخصيات «الجنود المريدين المؤمنين» عمليا - دون انفصام أو حائل - في حقل الدعوة التي أخرجتهم من الظلمات إلى النور. وهو التقاء بمفهومه الشامل: نظريا وعمليا، وبتعبير أدق: نفسيا وروحيا وسلوكيا: فالإيذاء الذي ينزل بهم ينزل بقائدهم، فهي المعاناة المشتركة أو المتماثلة. وهو يواجه ذلك بثبات وصلابة دون أن تطير نفسه شعاعا، أو يتراجع خطوة إلى الوراء، أو يفقد ذرة من إيمانه بدعوته، ويقينه في الله، فمظلته وملاذه ﴿**إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي**﴾ و ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾، وبنفس

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٦٣-٢٦٩,٢٩٤-٣٠١,٣١٦-٣٢٠ وإمتاع الأسماع للمقريزي ١٨-٢٦ والرحيق المختوم للمباركفوري ٨٠-٨٦.

المظلة استظلوا، وبنفس الملاذ لاذوا وعاذوا. فكان لهذا الالتقاء الشامل بمفهومه الذى ذكرناه أثر كبير في كسر غلواء المحنة، والانتصار عليها.

٣ – ودل هذا الابتلاء على عظمة الشارع وعظمة شريعته، فاعتبارا للأحداث والوقائع –كمنهج القرآن المطرد في معالجة الأمور – بدأ ظهور «**فقه الابتلاء**»، ومثال ذلك أن عمار بن ياسر رأى كيف استشهد أبوه من أثر التعذيب، واستشهدت أمه بطعنة من حربة بيد عدو الله أبي جهل، وشدد الكفار العذاب عليه بالحر تارة، وبوضع الصخر أحمر على صدره تارة أخرى، وقالوا لن نتركك حتى تسب محمدا، أو تقول في اللات والعزى خيرا، فوافقهم على ذلك مكرها، وجاء باكيا معتذرا للنبي ﷺ فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿ ... **إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (١٠٦) ﴾[١].

وبذلك رخص الله للمؤمن أن ينطق بكلمة الكفر تقيَّة إذا خاف على نفسه الهلكة، ما دام قلبه مطمئنا بالإيمان. وهذا من عظمة التشريع، واتساق جوانبه وواقعيته دون تناقض، فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وقد أكد هذا المعنى رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة عرضنا بعضها في تضاعيف ما كتبنا في هذا البحث. وهذه الواقعية التشريعية التى تتجنب الإعنات، وتكليف المسلم بأكثر أو أشد مما تتحمله طاقة البشر، تدفع المسلم إلى شدة التمسك بدينه من ناحية، والالتزام الفعلي بتكاليفه اعتقادا وتنفيذا من ناحية أخرى.

٤ – وابتلاء المسلمين في الفترة المكية دليل على مصداقية العقيدة الإسلامية، ومصداقية الرسول ﷺ لأنه تطبيق عملى لسنّة الله في الدعوات، فهي المحن تنزل بالأنبياء والرسل والمؤمنين على مدار التاريخ الإنساني، لتميز الخبيث من الطيب، ويستدرج البغاة إلى العذاب، ويكون النصر «للحق» في النهاية، وبذلك نزل القرآن الكريم في أصحاب الأخدود وبني إسرائيل ونوح وقومه وغيرهم، كما كان النبي ﷺ يشرح للمسلمين هذه الحقيقة، ويضرب لهم الأمثال الواقعية من واقع تاريخ الدعوات السابقة كقصة الغلام المؤمن والساحر والملك الكافر.

٥ – ولا يستطيع أحد أن ينكر **أن التأثير البالغ لما نزل بالمسلمين في مكة من بلاء يتمثل في «تأهيلهم» لتحمل أعباء الدعوة في مسيرتها**؛ فقد صقل نفوسهم بطاقة إيمانية لا تغلب بعد أن اكتسبوا الدروس، وتبينوا الحقائق السابقة في طبيعة الدعوة، وطبيعة الداعي وطبيعة الطغاة البغاة.

---

(١) سورة النحل: [١٠٦]. وانظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٣٦ – ٢٣٨، والرحيق المختوم ٨٥.

كما أنهم – بما عانوه وقاسوه – اكتسبوا قوة بدنية قادرة على المواجهة والتحمل، فاستهانوا – بعد الذي لقوه من كفار مكة – بكل ألوان المشاق؛ لأنهم «جربوا» وكسَروا، ولم ينكسروا، وكأن لسان حالهم يقول:

رماني «الكفر» بالأنصالِ حتى
فؤادي في غشاءٍ من نبالِ
فكنتُ إذا أصابتنْي سهامٌ
تكسّرت النصالُ على النصالِ

ولا عجب أن يستهينوا بالموت نفسه، ويهرعوا بعد ذلك إلى طلب الشهادة، وصدق عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إذ قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلما
على أي جنب كان في الله مصرعي

* * *

وتساوى في هذا «**التأهل**» رجل من العلية أصحاب العز والثراء كمصعب بن عمير الذى عذبته أمه وأهله بالجوع والطرد. وعبد فقير لا أهل له ولا عصبية ولا مال كبلال بن رباح..

وحتى نعي قيمة هذا التأثير أو هذا التأهيل بالإعداد الروحي والبدني، لنفترض أن المسلمين لم ينزل بهم في مكة ما نزل، وأنهم هاجروا إلى المدينة واستقروا بها دون أن ينال واحد منهم أية شدة أو مكروه بمكة.. ترى هل كانوا يستطيعون مواجهة القوى «المضادة» في مجتمع المدينة والتى تتمثل بصفة أساسية في المنافقين واليهود؟ إن الإجابة تقرر أنه – على أحسن الفروض – كانت المواجهة وكسر هذه القوى ستستغرق من الوقت أضعاف ما استغرقت، لذلك كان من فضل الله أن «تأهل المسلمون» في مكة بالبلاء قبل هجرتهم إلى المدينة ليكملوا مسيرتهم في موكب الإيمان، ونشر دعوة الحق في كل مكان، وكانت هجرة النبي والمسلمين من مكة إلى المدينة هجرة إلى «الأصلح» لا «الأسهل» فالبيئة الجديدة – بعد بيعتى العقبة – كانت أكثر صلاحية وقابلية للدين الجديد، وإن كانت قوى الشر فيها من يهود ومنافقين أشد وأعتى، فلم تكن الهجرة «فراراً بالنفس» ولكنها كانت «فراراً بالدين».

* * *

وبالرعيل المبتلى في مكة، وبالمدد الجديد من الأنصار استطاع المسلمون أن يكسروا قوى الشر والكفر من منافقين ويهود، ثم القضاء على الشرك في جزيرة العرب، ثم القضاء على امبراطوريتي البغي والظلم والجبرية فارس والروم.

وفي عهد أبي بكر رضى الله عنه استطاعوا أن يقضوا على الردة.

وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه تحملوا محنة المجاعة في عام الرمادة، وتحملوا -عن رضى بقضاء الله وقدره- محنة طاعون عمواس.

ولم يعد «لمعيار الكم» قيمة في حساب المسلمين بعد أن ثبت في معجمهم قاعدة ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** (٢٤٩) ﴾[١] وأصبحت هذه القاعدة مطردة في حياتهم وهم يواجهون أعداءهم ويحققوا بإذن الله الانتصار تلو الانتصار.

* * *

وفي ختام هذا البحث أقرر أننى لم أهدف من ورائه إلى أن أقدم «تاريخًا»، ولكن التاريخ - بالنماذج التى قدمتها في الفصول السابقات - هو الذى فرض نفسه، وبتعبير أدق بل أصح: هو الذي استدعاه الخاطر ليبوح بما يحمله من دلالات، وما يطرحه من دروس وعبر، وما يفرزه - بالاعتصار - من توجيهات رشيدة نافعة.

وفي هذا المقام **يحزنني أن أقرر أننا نقرأ التاريخ قراءة مثقلة بالعيوب.**

١- فالتاريخ يقرأ غالبًا قراءة معرفية يقصد بها اكتساب المعارف والمعلومات عن الوقائع والأشخاص، والكم هنا له كيانه واعتباره.

٢- ويُهْتم في هذه القراءة بالوقائع والأحداث المتوهجة التى تشغل حيزًا واسعًا من الأرض والزمن ومشاعر الناس وعواطفهم، كالحروب والانتصارات العسكرية، مع أن من الأحداث الخفية أو «الجزئية» ما له من الآثار ما هو أعمق وأكثر.

٣- ويُقْرأ التاريخ غالبًا بعقلية «قابلة» لا عقلية «فاعلة» تناقش الأحداث والوقائع، وتنظر إليها ببصيرة نافذة تنفض عن التاريخ ما علق به من أكاذيب وأبطولات لعبت السطحية «وحسن النية» دورًا كبيرًا في تثبيتها[٢].

٤- ويُغفَل استخلاص الدلالات من وقائع التاريخ، ومدى تأثير الماضي في الحاضر. وهنا نجد العكس المنكود أى «**تأثير الحاضر في الماضى**»، أى توجيه وقائع الماضى

---

(١) سورة البقرة: [٢٤٩].

(٢) فما زال أبناؤنا يدرسون ويلقنون في مدارسهم أن طاوق بن زياد حرق الأسطول عند نزوله بالاندلس. وهى أكذوبة تاريخية لا أساس لها من الصحة. وقد حققتُ ذلك في كتاب تحت الطبع بعنوان (من المنابع الصافية).

وتفسيرها بمعايير ومذهبيات معاصرة: كالتفسير المادى للتاريخ وتحميل وقائعه غير ما تحتمل، أو أكثر مما تحتمل، وإعطاء الوقائع والشخصيات والعقائد من الألقاب والصفات ما لا يتفق مع طبيعتها، وطبيعة العصر الذي عاشت فيه كوصف أحدهم رسول الله ﷺ بأنه «الثائر الأعظم» ووصف أبي ذر رضي الله عنه بأنه «رائد الاشتراكية الإسلامية» أو ممثل اليسار الإسلامي، أما عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فيمثل «اليمين الإسلامي» أو «الرأسمالية الوطنية» وكل ذلك إفساد للتاريخ وتشويه له.

* * *

ومن ثم أجد لزامًا علينا أن «نقرأ التاريخ» قراءة صائبة بصيرة تتجنب العيوب السابقة: وتطلب ما تحمله الأحداث من دروس وعبر. وفي نطاق بحثنا، وبعد أن تبينا قيمة الابتلاء وآثاره في حياة المسلمين يجب أن تضم مقرراتنا المدرسية والجامعية موضوعات ونماذج من معجم الابتلاء في تاريخنا مع الوقوف عند ما تعكسه هذه النماذج من قيم ومثل ودلالات نفسية واجتماعية وتربوية، مع ربط الماضي بالحاضر، وبيان الفروق في معالجة الأزمات والمحن. وعلى سبيل التمثيل: يُدرس للطلاب محنة المسلمين في عام الرمادة سنة ١٨ هـ بسبب انقطاع المطر، وعرض محنة المسلمين في الصومال للسبب نفسه، مع وقفة مع منهج عمر بن الخطاب رضي الله عنه في التصدي لهذه المحنة حتى انفرجت الأزمة.

* * *

وأخيرًا لا يستطيع مسلم أن يملك نفسه من الحزن وهو يرى أن أغلب المسلمين – وخصوصًا مسلمي العالم الثالث – يعيشون في «دائرة المحن والبلاء» اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا وعلميًا، وما حدث في البوسنة والهرسك، وما يحدث حاليًا للمسلمين فى كوسوفو من مذابح وحشية عاتية، وما نراه من عربدة إسرائيل وقوى البغي العالمية التي تساندها. ثم نقف أمام السؤال التقليدي: وما الحل؟ كيف يتخلص المسلمون من هذا البلاء؟ وكيف يعود للمسلمين كيانهم ومكانتهم ووجههم الحضاري الزاهي؟

إن الإجابة عن هذا السؤال يعجز عنها فرد واحد، ولا تتسع لها صفحة أو صفحات، بعد أن استفحلت المشكلات، وعلت التراكمات، وظهرت مواضعات دولية جديدة. ولكني في هذا المجال الضيق أضع معالم وصُوًى على الطريق للاهتداء إلى الحل المرجوّ المنشود ومنها:

١– العودة إلى الله، والاهتداء بالمرجعية الإسلامية الأولى الصافية النقية، فإن آخر هذه

الأمة لن ينصلح حاله إلا بهذه العودة في كل مجالات حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأسرية والتعليمية.. وكل أولئك انطلاقًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مع الانتفاع بمعطيات الحضارة الغربية فيما لا يتعارض مع ديننا وثوابتنا.

٢- تحقيق الوحدة العربية بدءًا بتصفية الخلافات العربية، ولا ما نع من البدء بعد ذلك باتخاذ خطوات في سبيل اتحاد أو وحدة اقتصادية عربية، أو سوق عربية مشتركة، تتسع دائرتها لتكون سوقًا عربية إسلامية مشتركة. وقد أثبت الباحثون أنه في هذه الحال يمكن تحقيق «**التكامل الاقتصادي**» دون احتياج لمعونات غربية أو الاستيراد من الأسواق الغربية.

٣- وعلى مستوى الشعوب يجب توجيه رءوس الأموال العربية إيداعًا واستثماراً إلى الأسواق والمشروعات في نطاق الدول العربية والإسلامية مع إعطاء رءوس الأموال هذه الضمانات الكافية.

٤- مد الشعوب الإسلامية المحتاجة بالمعونات، وخصوصًا الشعوب الفقيرة التي تعرضت لمحن الجوع والقحط، مع ملاحظة أن تكون أغلب هذه المعونات «**معونات إنتاجية**» في هيئة مصانع أو استصلاح أراضٍ واستزراعها، فهذا أبقى وأنفع من المعونات الاستهلاكية من طعام وكساء، وما شابه ذلك، مع الإبقاء على المعونات الأخيرة إلى أن تثمر المعونات الإنتاجية، وتأتى أكلها.

٥- إنشاء صندوق عربي إسلامي باسم (**دينار الإنقاذ**) أو ما شابه ذلك، تتبناه الدول العربية والإسلامية شعوبًا وحكومات، وذلك في شكل تبرع رمزى أو ضريبة رمزية تفرض على الخدمات المختلفة، وتذاكر السفر، وطوابع المصالح الحكومية.. إلخ، والحصيلة تنفق للتخفيف من أزمات الدول الفقيرة.

٦- إمداد المجاهدين في كل مكان بما يحتاجونه من مال وسلاح، حتى يستطيعوا تحرير أرضهم وشعوبهم وليكن ذلك سرًا، وبطرق حكيمة إذا سببت العلانية حرجًا أو صدامًا مع الآخرين.

٧- وإذا صعب حاليًا إنشاء «**جيش إسلامي**» لمواجهة أعداء العرب والمسلمين، فلا أقل من التركيز في مناهج التدريس على فقه الجهاد، وأن يُهتم بالجانب التربوي السلوكى في تدريس فروع مادة «التربية الدينية».

هذه بعض المعالم التى يمكن أن يستأنس بها، وهى قليلة جدًا إذا ما نظرنا إلى فداحة المحن التى نزلت وتنزل بالمسلمين. مما يحتاج إلى تشخيص أعمق، ودراسة أوفى. والله ولى التوفيق

د. جابر قميحة

المـــراجـــع

١ - **الابتلاءات: أساليب الكفرة في محاربة الدعوة في عصر النبوة**: حمود بن عبد الله المطر. دار طويق للنشر - الرياض - الطبعة الأولى ١٤١٦ - ١٩٩٥.

٢ - **الابتلاء والمحن في الدعوات**: د. محمد عبد القادر أبو فارس. دار التوزيع والنشر الإسلامية. القاهرة ١٩٩٠.

٣ - **ابن حنبل: حياته وعصره - آراؤه وفقهه**: محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي. القاهرة - ١٤١٨ - ١٩٩٧.

٤ - **إحياء علوم الدين**: أبو حامد الغزالي. دار الشعب القاهرة (د.ت).

٥ - **أدب الخلفاء الراشدين**: د. جابر قميحة. دار الكتاب المصري اللبناني. القاهرة - بيروت ١٩٨٥.

٦ - **أدب الرسائل في صدر الإسلام: الجزء الأول.. عهد النبوة**. د. جابر قميحة. دار الفكر العربي. القاهرة ١٤٠٦ - ١٩٨٦.

٧ - **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود)**: أبو السعود محمد بن محمد العمادي. مكتبة محمد صبيح. القاهرة (د.ت).

٨ - **أساس البلاغة**. الزمخشري: جارالله أبو القاسم محمود بن عمر. دار المعرفة. بيروت (د.ت).

٩ - **أسباب النزول**: الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري. تحقيق الدكتور السيد الجميلي. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الرابعة ١٤١٢ - ١٩٩١.

١٠- **الاستيعاب في أسماء الأصحاب**. ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي المالكي (بهامش الإصابة لابن حجر). دار الفكر. بيروت (د.ت).

١١- **أسد الغابة في معرفة الصحابة**. عز الدين بن الأثير: أبو الحسن علي بن محمد الجزري. تحقيق محمد البنا ومحمد عاشور. دار الشعب. القاهرة (د.ت).

١٢- **الإسلام بين العلماء والحكام**: عبد العزيز البدري. باكستان ١٣٩٩.

١٣- **الإصابة في تمييز الصحابة**. ابن حجر: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني ثم المصري الشافعي. دار الفكر. بيروت (د.ت).

١٤- **الأعلام**: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الرابعة. يناير ١٩٧٩.

١٥- **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**: أبو بكر جابر الجزائري. مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة – الطبعة الثالثة – ١٤١٨ – ١٩٩٧.

١٦- **تاريخ الخلفاء**. السيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. دار الفكر. بيروت (د.ت).

١٧- **تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)**: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. تحقيق أبي الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الرابعة ١٩٧٧.

١٨- **التصوير الفني في القرآن**: سيد قطب. دارالشروق. القاهرة. الطبعة الثامنة ١٤٠٣ – ١٩٨٣.

١٩- **تفسير الجلالين**: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. دار المعرفة. بيروت (د.ت).

٢٠- **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**: محمد عبده ورشيد رضا. دار المنار. القاهرة. الجزء الثاني. الطبعة الثانية ١٣٥٠، والجزء الرابع. الطبعة الثالثة ٣٦٧.

٢١- **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن ضوء بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي. أبو الفدا عماد الدين. مكتبة الإيمان. المنصورة. مصر. الطبعة الأولى ١٤١٧ – ١٩٩٦.

٢٢- **التفسير الوجيز ومعجم معاني القرآن العزيز**: د. وهبة الزحيلي. دار الفكر. دمشق. الطبعة الأولى ١٤١٧.

٢٣- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)**: أبو محمد بن جرير الطبري. تحقيق صدقي جميل العطار. دار الفكر. بيروت ١٤١٥ – ١٩٩٥.

٢٤- **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. دار الشعب. القاهرة (د.ت).

٢٥- **جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة**: أحمد زكي صفوت. مصطفى البابي الحلبي. القاهرة. الطبعة الثانية ١٣٩١ – ١٩٧١.

٢٦- **حديث الإفك**: عبد الحليم بن إبراهيم العبد اللطيف. نادي القصيم الأدبي. السعودية. الطبعة الأولى ١٤١٠ – ١٩٩٠.

٢٧- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**: أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتاب العربي،

القاهرة. ١٩٣٨.

٢٨- **حياة محمد**: د. محمد حسين هيكل. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الثالثة عشرة – ١٩٧٥.

٢٩- **رجال الفكر والدعوة في الإسلام**: أبو الحسن الندوي. دار القلم. الكويت – الطبعة الثالثة ١٣٨٩ – ١٩٦٩.

٣٠- **الرحيق المختوم**: صفي الدين المباركفوري. مؤسسة التاريخ العربي. بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٦ – ١٩٩٦.

٣١- **الرسول حياة محمد**: ر.ف. بودلي. ترجمة محمد فرج وعبد الحميد السحار. مكتبة مصر. القاهرة (د.ت).

٣٢- **السيرة النبوية**: ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري. تحقيق مصطفى السقا وآخرين. مصطفي البابي الحلبي. القاهرة. الطبعة الثانية – ١٣٧٥ – ١٩٥٥.

٣٣- **سيرة عمر بن الخطاب**: على الطنطاوي وناجي الطنطاوي. المكتبة العربية. دمشق (د.ت).

٣٤- **الصبر والثواب عليه**: ابن أبي الدنيا: أبو بكر عبد الله بن محمد. تحقيق محمد خير رمضان يوسف. دار ابن حزم. بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٨ – ١٩٩٧.

٣٥- **صحيح مسلم**. الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري أبو الحسين حافظ. شرح النووي الشافعي أبي زكريا محيي الدين. تحقيق وإشراف عبد الله أحمد زينه. دار الشعب (د.ت).

٣٦- **صفوة التفاسير**: محمد علي الصابوني. دار القرآن الكريم. بيروت. الطبعة الرابعة ١٤٠٢ – ١٩٨١.

٣٧- **الطب النبوي**. ابن قيم الجوزية: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي. تحقيق وتعليق عبد القادر الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الثالثة ١٤٠٢ – ١٩٨٢.

٣٨- **الطبقات الكبرى**. محمد بن سعد. عناية حمزة النشرتي وآخرين (د.ت، د. مكان الطبع).

٣٩- **عبقرية عمر**. عباس محمود العقاد. طبعة وزارة التربية القاهرة ١٣٨٨ – ١٩٦٨.

٤٠- **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**. ابن قيم الجوزية: شمس الدين محمد بن أبي

بكر الزرعي الدمشقي : تحقيق وتعليق محمد عثمان الخشت . دار الكتاب العربي . بيروت ١٤١٤ – ١٩٩٤ .

٤١- **العقد الفريد** . ابن عبد ربه الأندلسي : أبو عمر أحمد بن محمد . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٠ .

٤٢- **عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة (دراسة مقارنة)** . د . سليمان محمد الطماوي . دار الفكر العربي . القاهرة . الطبعة الأولى ١٩٦٩ .

٤٣- **الفاروق عمر** . د . محمد حسين هيكل . مطبعة مصر القاهرة – ١٩٦٤ .

٤٤- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** : الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني . تصحيح ومراجعة محمد فؤاد عبد الباقي وقصي محب الدين الخطيب . دارالريان للتراث . القاهرة . الطبعة الأولى ١٤٠٧ – ١٩٨٧ .

٤٥- **الفتنة وموقف المسلم منها في ضوء القرآن** . عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني . دار القاسم للنشر والتوزيع . الرياض . الطبعة الأولى ١٤١٧ – ١٩٩٦ .

٤٦- **الفتن والبلايا والمحن والرزايا . أو فوائد البلوى والمحن** . العز بن عبد السلام : عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي . تحقيق إياد خالد الطباع . دار الفكر المعاصر . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٩٥ .

٤٧- **فتوح البلدان** . البلاذري . أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي البلاذري . دار الكتب العلمية . بيروت ١٣٩٨ – ١٩٧٨ .

٤٨- **الفروق اللغوية** : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران اللغوي العسكري . ضبط وتحقيق حسام الدين القدسي . دار الكتب العلمية . بيروت – ١٤٠١ – ١٩٨١ .

٤٩- **فقه السيرة النبوية (مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة)** د . محمد سعيد رمضان البوطي . دار الفكر المعاصر . بيروت . الطبعة العاشرة ١٤١١ – ١٩٩١ .

٥٠- **في ظلال القرآن** . سيد قطب . دار الشروق . القاهرة . الطبعة التاسعة ١٤٠٠ – ١٩٨٠ .

٥١- **القاموس الإسلامي** . أحمد عطية الله . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٤٠٠ – ١٩٨٠ .

٥٢- **القاموس المحيط** . الفيروزابادي : مجد الدين محمد بن يعقوب . مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الرابعة ١٤١٥ – ١٩٩٤ .

٥٣- **قصص الأنبياء**: ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن ضوء بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي: أبو الفدا عماد الدين. دار المعرفة. بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٨ - ١٩٩٧.

٥٤- **قصص الأنبياء**. عبد الوهاب النجار. مطبعة مصر. القاهرة. الطبعة الثالثة: ١٣٧٢ - ١٩٥٣.

٥٥- **القصص في الحديث النبوي (دراسة فنية وموضوعية)**. د. محمد بن حسن الزير. دار المدني. جدة. الطبعة الثالثة ١٤٠٥ - ١٩٨٥.

٥٦- **القضايا الكبرى في الإسلام**. عبد المتعال الصعيدي. مكتبة درب الجماميز. القاهرة. (د.ت).

٥٧- **كتاب المحن**. أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي. تحقيق الدكتور يحيى وهيب الجبوري. دار الغرب الإسلامي. بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠٨ - ١٩٨٨.

٥٨- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي. دار الفكر. بيروت. (د.ت).

٥٩- **لباب النقول في أسباب النزول**. السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. دار إحياء العلوم. بيروت. الطبعة الثامنة ١٤١٤ - ١٩٩٤.

٦٠- **لسان العرب**. **ابن منظور**: عبد الله محمد بن المكرم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري الخزرجي. دار المعارف. القاهرة (د.ت).

٦١- **مجموعة الرسائل والمسائل**. ابن تيمية: أحمد تقي الدين أبو العباس بن شهاب الدين. دار الفكر. بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٦ - ١٩٩٦.

٦٢- **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**. د. محمد حميد الله. دار الإرشاد. بيروت. الطبعة الثالثة. (د.ت).

٦٣- **محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية: الدولة العباسية**. محمد الخضري. مطبعة الجمالية. القاهرة. الطبعة الأولى ١٣٣٤ - ١٩١٦.

٦٤- **المحنة (بحث في جدلية الديني والسياسي في الإسلام)**. د. فهمي جدعان. دار الشروق. عمان. الأردن. الطبعة الأولى ١٩٨٩.

٦٥- **المعجم الوجيز**. مجمع اللغة العربية. القاهرة ١٤١١ - ١٩٩١.

٦٦- **معجم مقاييس اللغة**. ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي. تحقيق عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة الطبعة الثالثة - ١٤٠٢.

٦٧- **مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير**. الفخر الرازي: محمد الرازي فخر الدين ابن ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري. المطبعة الشرفية. القاهرة - ١٣٢٤.

٦٨- **المفردات في غريب القرآن**. الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد. تحقيق وضبط محمد خليل عيتابي. دار المعرفة. بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٨ - ١٩٩٨.

٦٩- **مناقب الإمام أحمد بن حنبل**. ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد. مكتبة الخانجي. القاهرة. (د.ت).

٧٠- **مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب**. ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد. تحقيق دكتورة زينب إبراهيم القاروط. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الثالثة - ١٤٠٧ - ١٩٨٧.

٧١- **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (الكتاب الأول)**. د. أحمد شلبي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. الطبعة الأولى ١٩٨١.

٧٢- **الموسوعة الفقهية**. إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت. الطبعة الثانية ١٤١٠ - ١٩٩٠.

٧٣- **النبأ العظيم**. د. محمد عبد الله دراز. دار طيبة الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٧ - ١٩٩٧.

٧٤- **الوافي بالوفيات**. صلاح الدين الصفدي عناية. س. ايدرينغ فيسبادن - ١٩٧٢.

٧٥- **وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان**. ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان. تحقيق إحسان عباس. دار صادر. بيروت ١٣٩٨ - ١٩٧٨.

الفهـــرس

الفصل الرابع (٩١ – ١٢٦)

من صور الابتلاء في الأمة الإسلامية